طبعة ثانية

غازي عبد الرحمن القصيبي





24.6.2012

ألزهايمر

«أقصوصة»



بيسان

غازي بن عبد الرحمن القصيبي



ألزهايمر

«أقصوصة»







ألزهايمر



● اسم الكتاب: الزهـايمـر

● تــــاليـــف: غازي بن عبد الرحمن القصيبي

● الطبعة الأولى: آب (أغسطس) 2010 م

● الطبعة الثانية: كانون الأول (ديسمبر) 2010 م

● الناشـر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام

ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان

تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961

E-mail: info@bissan-bookshop.com

Website: www.bissan-bookshop.com

الكتاب متوفر على الأنترنت: مكتبة نيل وفرات.كوم www.nwf.com

الإهداء

إلى أصحاب القلوب الذهبية

الإخوة والأخوات

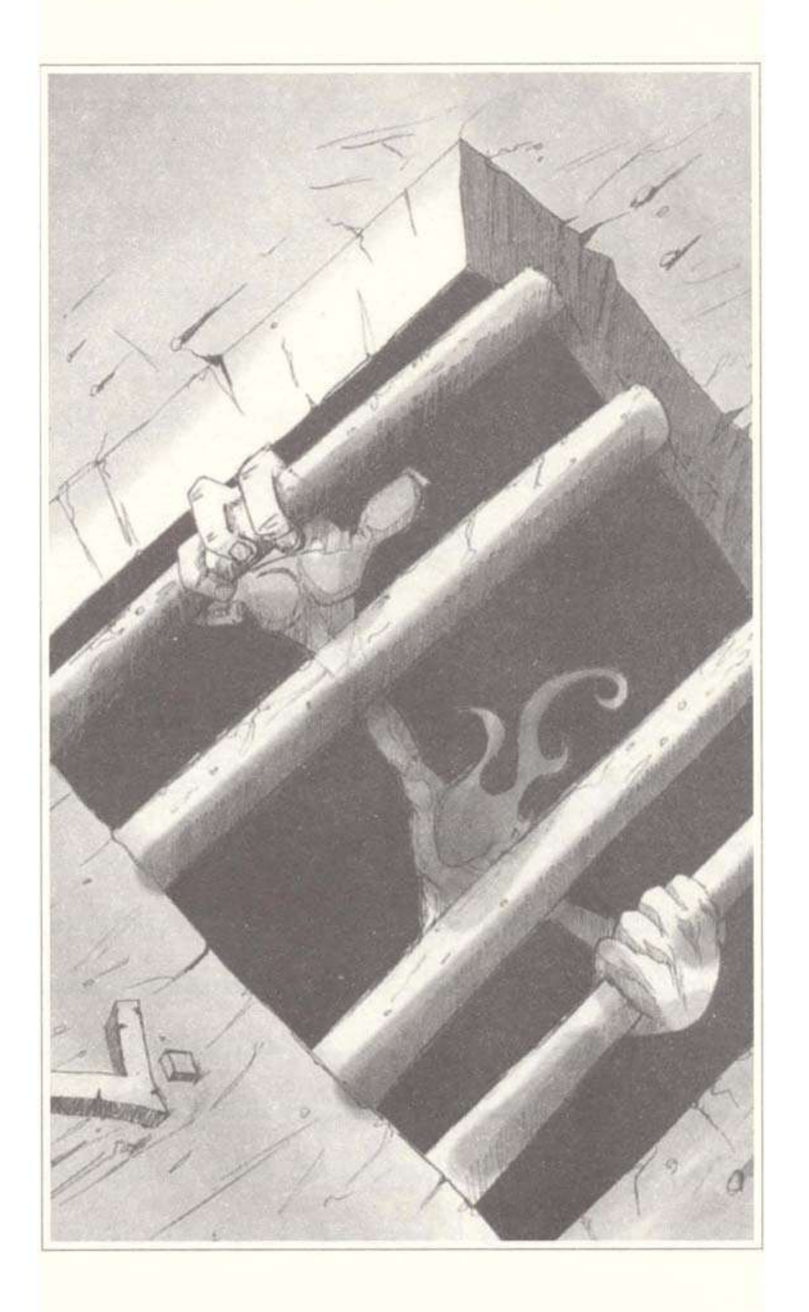
أصدقاء مرضى «الزهايمر»



مدخل

يقف يعقوب العريان أمام بائعة العطور ليشتري زجاجة من عطر زوجته المفضل «إكسنتركس». تسأله البائعة ماذا يريد ويحاول عبثاً تذكر الاسم. تحاول البائعة مساعدته على التذكر إلا أنه يعجز تماماً عن تذكر اسم العطر، عطر زوجته المفضل. بعد دقائق احمرّ فيها وجهه، وبدت عليه كل علامات الاضطراب، غادر المتجر وهو يعد البائعة، التي تبتسم بعطف، بأن يعود إليها ومعه الاسم مكتوباً.

« 1 »



عزيزتي،

كان علي أن أخبرك بما حدث بمجرّد علمي. ومتى علمت؟ قبل شهور، أو ربّما قبل سنة. التفاصيل الصغيرة بدأت تضيع، وقريباً ستضيع التفاصيل الكبيرة. آه! هل يمكن أن تكبر التفاصيل وتظلّ مجرد تفاصيل؟

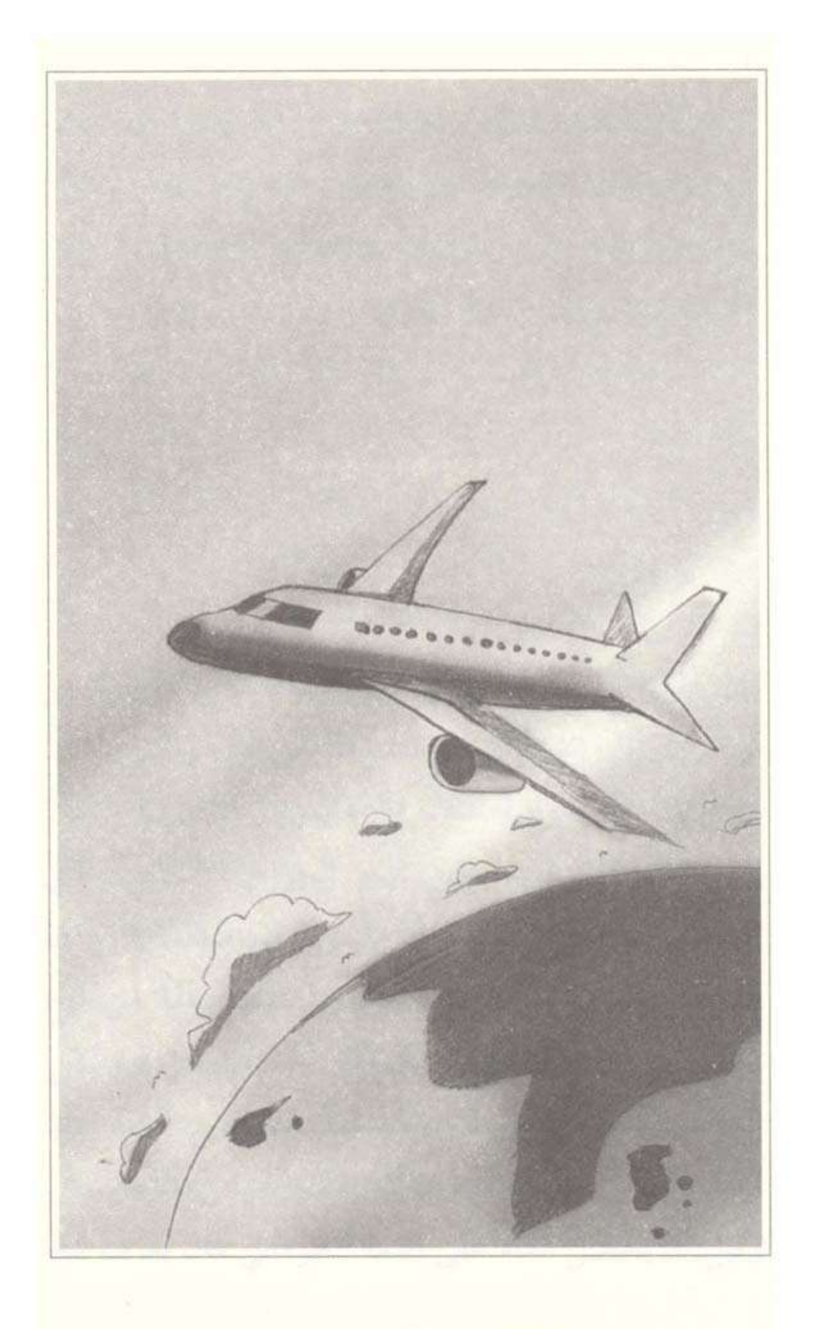
والشيطان، كما يقول المثل الغربي، يختفي في التفاصيل.. لهذا، ربما، تختفي التفاصيل: يخفيها الشيطان الذي يختفي فيها. حسناً! كان عليّ أن أخبرك بمجرّد أن قال لي الطبيب أنه يشك، كانت المسألة مجرد شك، في إصابتي بألزهايمر. بدأت أراقب نفسي، بدقّة شديدة. ولم أشأ أن أزعجك قبل أن يكون هناك مبرر

للإزعاج. كانت ذاكرتي، كعهدي بها، وكنت أتذكّر ما أريد أن أتذكره. لم أنس، قط، عيد ميلادك. يا الله! أنت تصغرينني بربع قرن! لم أنس، قط، تاريخ زواجنا ولكن، رجاءً، لا تسأليني، الآن، عن هذا التاريخ. الأرقام! أَسْر الأرقام! أسوأ أسرٍ يمكن أن يقع فيه إنسان. أسوأ من «قصر النهاية»، ومن سجون «السي آي إيه» الطائرة بين الدول، ومن قلعة «جوانتنامو» القابعة في كوبا، هدية «دبليو» لبشرية معترفة بالجميل. أسر الأرقام! أن يأسرك كونك ابنة العشرين فلا تتصرفين إلا كما تتصرف ابنة العشرين. أهناك سجن أفظع من هذا؟ أن يأسرني كوني في السبعين فلا أتصرف إلا وفق النموذج «المعتمد» لأبناء السبعين. هل هناك قفص أضيق من هذا القفص؟ السعادة الحقيقية كثيراً ما تكون في التخلص من قيد الأرقام. العم الوقور، ابن السبعين، هل هناك ما يسعده أكثر من أن تعيده امرأة رائعة إلى عهد الصبا كما فعلتِ أنتِ. وأكثر الذين يطلّقون زوجاتهم بعد زواج طويل يحاولون الخلاص من أسر الأرقام، وقد ينجحون موقتاً ولكنهم يفشلون في النهاية. حسناً، كنت أقول لك أن ذاكرتي ما زالت قادرة على التذكر، تذّكر الأشياء

الهامة على أية حال. ثم بدأت الأمور تتغيّر. بدأت ألاحظ أن ذاكرتي لم تكن كما كانت. لا! لا! لا أقصد أني صحوت ذات يوم وسألت ابننا زهير «من أنت؟!»، أو قلت لابنتنا هيفاء «ما اسمك يا بنيتي؟!». تغيرت الأشياء على نحو خفي جداً، ومراوغ جداً. ثم بدأت تحدث أشياء محرجة. لا داعي لذكر تفاصيلها. وبعد حادثة من هذه الحوادث أدركت أن الشك لم يعد مجرد شك. حانت ساعة القرار. ودعتك وقلت لك أني سأذهب، بمفردي، في رحلة عمل طويلة حول العالم. لو كنتِ أي امرأة أخرى لطال الجدال والأخذ والرد والاستجواب والدموع والنحيب.. إلى بقية القائمة المعهودة. إلا أنك أدركتِ، لأنك امرأة نادرة، امرأتي النادرة، أدركت بإحساسك الفطري، وهو يفوق أي إحساس فطري عند أي امرأة عرفتها، أدركت أني بحاجة إلى الابتعاد عنك، وعن زهير وهيفاء والناس كلهم. ابتسمت وعانقتني، وقبلتني، وتمنّيتِ لي سفرة سعيدة وعودة حميدة. شددت الرحال إلى طبيبي، الذي أصبح صديقي، البروفسور جيم ماكدونالد، رئيس مركز ألزهايمر في جامعة جورج تاون. أثبتت الفحوص العديدة

المعقدة وجود ألزهايمر في مرحلة مبكِّرة جداً (يقول الطبيب أنها مبكرة جداً ولكن الأمور نسبية). قلت له أني لا أريد إزعاج أحد بمرضي، وخاصة أنت وولدي وابنتي، وأريد قضاء بقية أيامي في أحسن مصح لمرضى «ألزهايمر» في العالم، وحبّذا لو كان في أمريكا. آه! أنت تعرفين أمريكا ولكنك لا تعرفينها كما أعرفها أنا. قلت لطبيبي الجملة السحرية التي تفتح كل الأبواب في أمريكا. بما فيها أبواب البيت الأبيض ربما: «التكاليف لا تهمّ!». وجد البروفسور «المكان». لا أجد كلمة أخرى، في سانتا باربرة. لعلك تذكرين سانتا باربره فقد زرناها معاً زيارة خاطفة ذات صيف. قلت «المكان» لأنه ليس مستشفى ولا مصحّة ولا عيادة ولا فندقاً ولا منتجعاً. الحقيقة أنه خليط من هذه الأشياء كلها. العناية خيالية، والعاملون مدربون على كل شيء، والمرضى «صفوة الصفوة»، وبعضهم من المشاهير، وقد أحدِّثك عنهم في ما بعد.

« 2 »



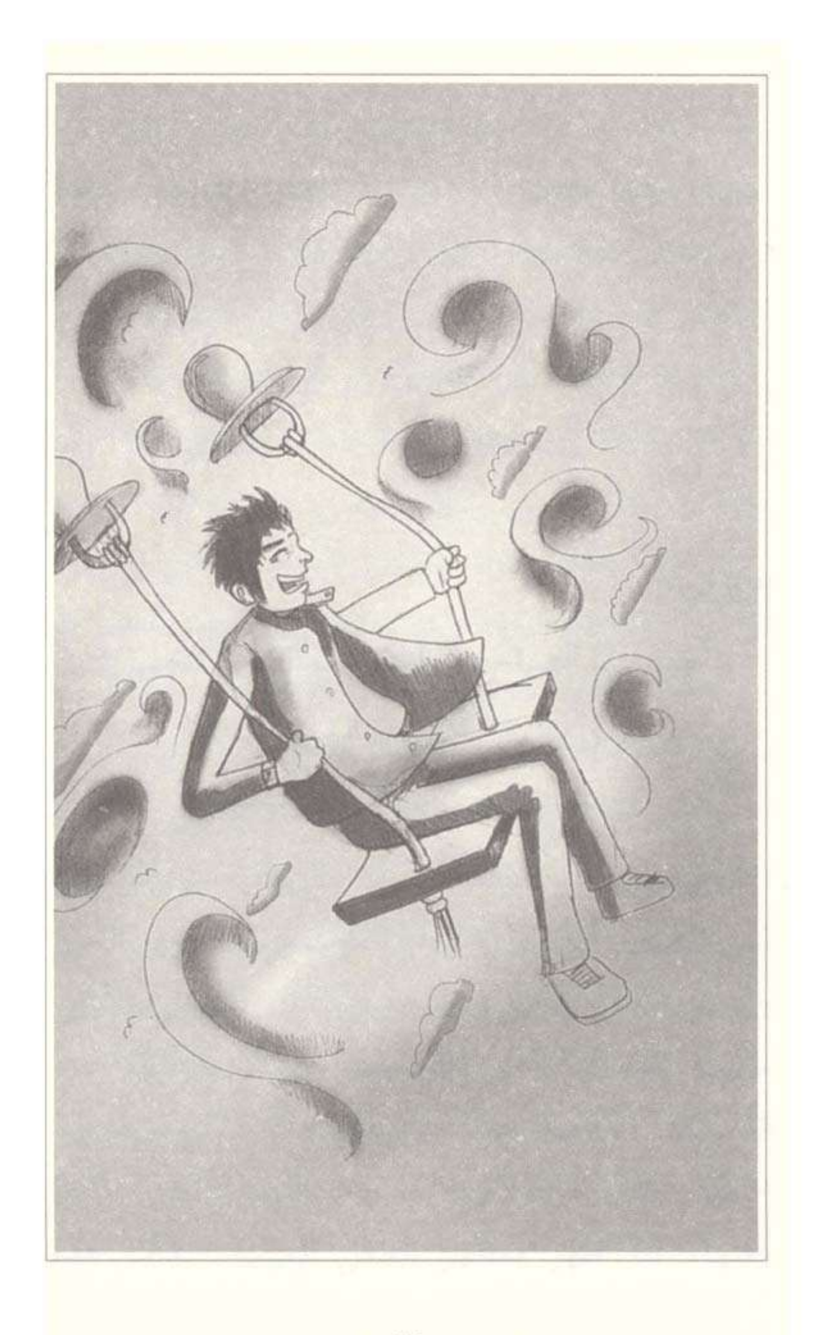
عزيزتي،

أشعر أنه من الضروري أن أعطيك فكرة موجزة عن مرضي. أنا واثق أنك سمعت عنه من قبل ولكني أشكّ أن لديك فكرة وافية عنه. «ألزهايمر»، إذا أردنا الدقة. ليس اسم المرض ولكن اسم الجرّاح الألماني الذي اكتشف المرض، آلويس ألزهايمر. في سنة 1906 كان هذا الجراح يشرّح مريضاً عندما اكتشف تلفاً من نوع خاص في خلايا المخ لم يلاحظه أحد من قبل، وسُمّي المرض باسم الطبيب المكتشف. تقتضي الدقة عند الحديث عن هذا المرض أن يقال «مرض ألزهايمر». وقبل أن يحصل الداء على اسمه الجرماني كان يعرف عند

العرب باسم «الخرف» أو «العته». إلا أن صاحبنا الجراح اكتشف العلّة في مخ مريض لم يتقدم به السن، بينما الخرف التقليدي مرتبط بأرذل العمر. وهكذا أصبح مرض ألزهايمر يشير إلى الخرف الذي يجيء قبل أوانه. إلا أن الأبحاث الحديثة أثبتت أن مرض «ألزهايمر» قد يجيء متأخراً شأن الخرف تماماً. ولا أرى أي مبرر لإزعاجك بالنقاش الطبي البيزنطي حول الفروق بين مرض «ألزهايمر» والخرف. ما يهمّنا، يا عزيزتي، أن الله شاء أن أصاب بمرض «ألزهايمر» الذي جاء مبكراً (قليلاً أو كثيراً؟). هذا المرض، باختصار، خلل في خلايا المخ، يبدأ بضعف الذاكرة ثم اختفائها وينتهي بالوفاة، مروراً بأعراض أخرى كثيرة أليمة. ويجب أن أسارع فأضيف أن هذا مرض ارستقراطي جداً وأن عدداً من «صفوة الصفوة» في الغرب قد أصيبوا به. وسأكتفي بذكر بعضهم: باري جولدواتر السياسي الأمريكي المعروف، وريتا هيوارث النجمة العالمية، وشارلتون هيستون ممثل الملاحم السينمائية الكبرى، وجوليانا ملكة هولندا، وأشهرهم جميعاً الرئيس رونالد ريجان. وهذا الأخير هو الذي قال: «هذا مرض جميل! تقابل الأشخاص أنفسهم

وتظن أنك ترى وجوهاً جديدة كل يوم». وقد تلقّف هذه العبارة عدد من الظرفاء والمتظارفين فنسجوا على منوالها عبارات أخرى كثيرة تستهدف التسلية والإضحاك.. وشرُّ البلية ما يضحك.

« 3 »



عزيزتي،

أفقت هذا الصباح وأنا أردد بيت المتنبي الجميل:

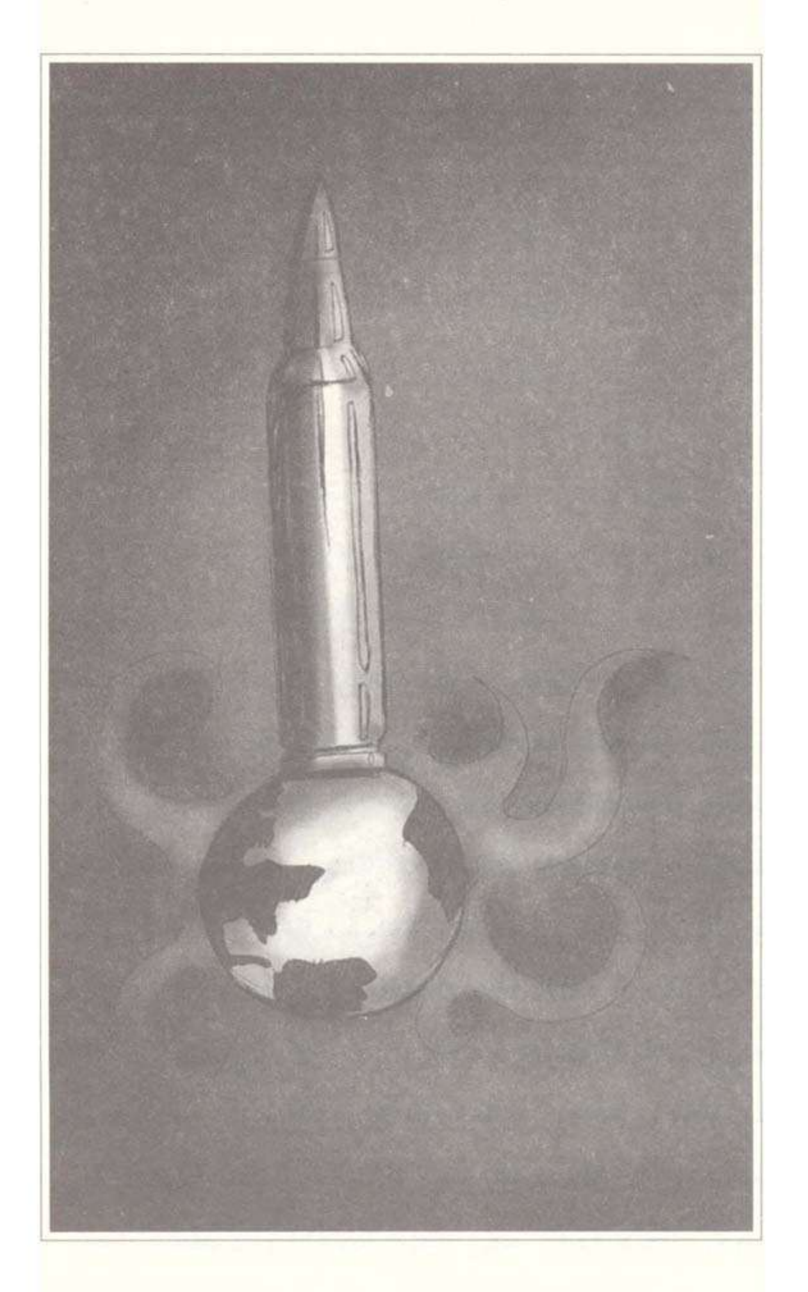
كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

عندما يصاب الإنسان بمرض لا يشفيه سوى الموت فمن الطبيعي أن تدور خواطر الموت في ذهنه بين الحين والحين. هل تعرفين، يا حبيبتي، أن ذكرياتي الأولى مرتبطة بالموت؟ أعني الذكريات التي لا يعرفها أحد، الذكريات الخاصة جداً. ذكرياتي هذه ملكي وحدي. خذي، مثلاً، محاولاتي الساذجة، التي لم تكن ساذجة وقتها، أن أظهر بمظهر الطفل الميِّت. بدأت هذه

المحاولات في الرابعة وانتهت مع السابعة. كانت لعبة عجيبة ألعبها بمفردي. كنت أغلق عيني، وألتصق بالجدار، وأحاول أن أجعل أطرافي تتخشب، وأحاول أن أوقف تنفسي. كنت أرجو أن يكتشف أحد، أيُّ إنسان، الطفل المسكين الذي مات بغتةً، وكنت أنوي بمجرد أن يثور الصياح أن أعود بطريقة عجائبية إلى الحياة. إلا أن محاولاتي لم تفلح في لفت أنظار أحد. أعتقد أن الذين يمرّون بي كانوا يفترضون أني كنتُ نائماً. لماذا كنت ألعب هذه اللعبة الجنائزية؟ كنتُ، بطبيعة الحال، أود أن أكون محور اهتمام البيت بأسره، ولو لدقائق معدودة. هل تعرفين أن كثيراً من الأطفال يلعبون هذه اللعبة خاصة عند قدوم طفل جديد؟ كنت أسبح مع زهير في البركة حين بدأ يلعب اللعبة معي، ويلعبها بمهارة غير متوقعة من طفل في الرابعة. تظاهر أنه غصّ بالماء، وبدأ يسعل، وأغمض عينيه، وترك أطرافه ترتخي. لم أكن بحاجة إلى ذكاء كبير لأدرك أن مجيء هيفاء، قبل الحادثة بشهر أو نحوه، كان السبب في الموت المفاجئ. قلت له بلسان الحال: «قديمة! إلعب غيرها!». وقلتُ له بلساني الحقيقي: «زهير! كفَّ عن هذه اللعبة السخيفة ولا تلعبها

مرة أخرى. نحن ما زلنا نحبّك، بل نحن نحبّك أكثر الآن». أضاء وجهه، وعاد إلى الحياة! من يدري ما يدور في عقول الأطفال؟ عندما أعود بذاكرتي، التي أوشك أن أفقدها، إلى الماضي أُفاجَأُ بالأشياء التي كنت أعرفها، والأشياء التي كنت أفعلها في الخامسة والسادسة والسابعة. لا! لن أدخل في تفاصيل. هذه ليست سيرة ذاتية؛ هذه رسائل من زوج إلى زوجته. وحتى لو كانت سيرة ذاتية هناك أشياء لا يجوز أن يطّلع عليها أحد. والسيرة الذاتية ليست مبرراً كافياً، أو ناقصاً، للتعرّي وإيذاء الناس. لا أدري لماذا كتب أستاذ الفلسفة الشهير سيرة ذاتية لم يترك فيها أحداً من الذين عرفهم إلا تعرّض له بسباب بذيء يأنف منه السُّوقة. ولا أدري لماذا قال كاتب شهير في سيرته الذاتية أنه كثيراً ما كان يرى أباه، إمام مسجد الحيّ، يتأبط غلاماً مليحاً. ولا أدري لماذا أخبرنا كاتب شبه شهير أن أباه الكاتب الإسلامي ذائع الصيت لم يكن يصوم ولا يصلي. حسناً! هذا الموضوع يرفع ضغط الدم عندي ولهذا فسوف أتوقف، إلى رسالة قادمة.

« 4 »



عزيزتي،

رسالتي، اليوم، طريفة بعض الشيء. قضيت بضع ساعات أتحدث مع زميلي في المكان البروفسور ديمري ديلنجر الذي بدأت الأمور تختلط عليه (أو بدأ يتظاهر بذلك!). واختلاط الأمور هو الذي دفع أجدادنا العرب إلى أن يقولوا عن المصاب بالهلوسة أنه: (اختُلِط). وهذا الاختلاط لا علاقة له بالاختلاط بين الجنسين الذي لم يصبح منكراً عظيماً وطامَّةً كبرى إلا في عصور الأمة المتخلفة، أما في صدر الإسلام فكان الرجال والنساء يختلطون في المساجد وفي الأسواق وعند القضاة وفي جيوش الغزو (وفي سفن الغزو أيضاً!) ولم يطالب أحد،

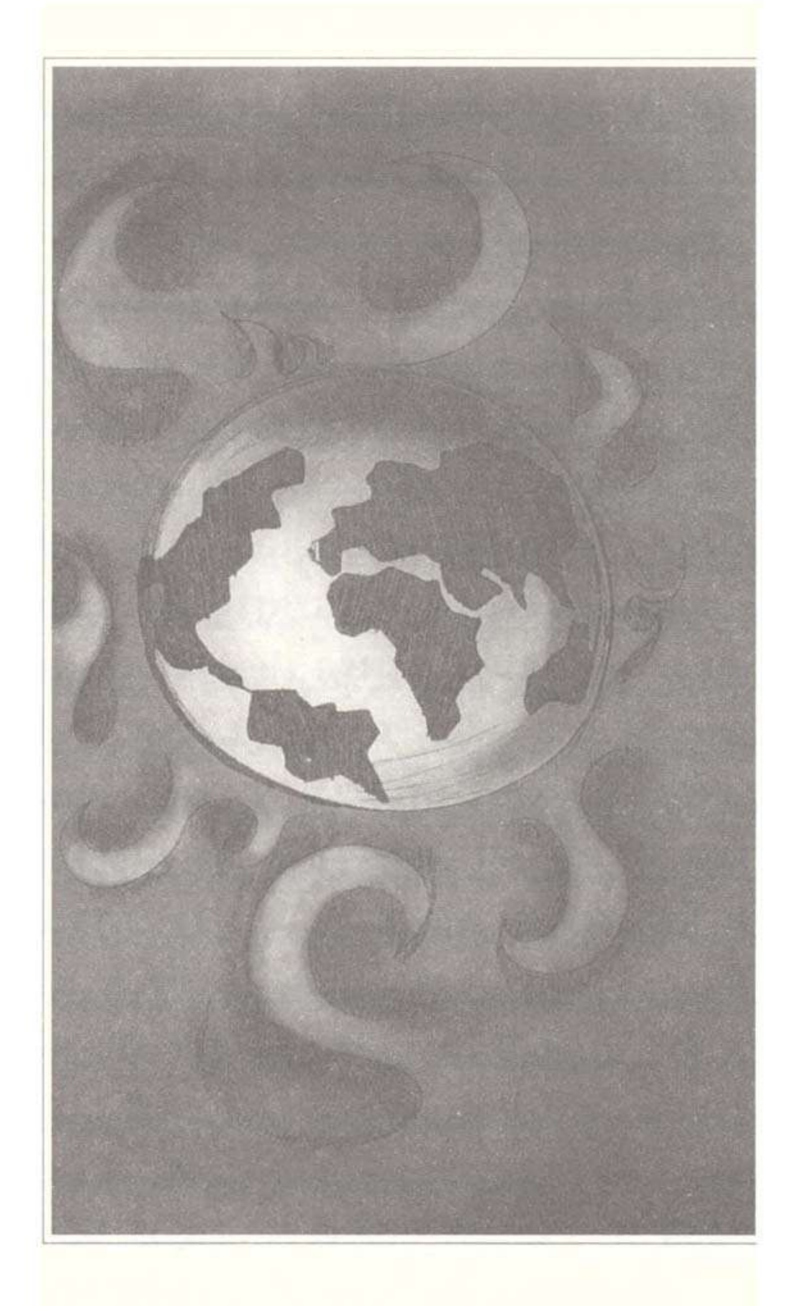
حسب علمي، بإنشاء مساجد أو أسواق أو محاكم أو جيوش أو سفن مخصصة للرجال وأخرى للنساء. وهذه مجرد خاطرة عابرة أثارها اختلاط البروفسور ولا أنوي التوسّع في بحثها. قال البروفسور: «جاك! هل أخبرتك أن مارلين مونرو كانت صديقتي؟». (بالمناسبة، يا عزيزتي، تحول إسمي هنا من يعقوب العريان إلى جيكوب آريان، واختصر الزملاء والزميلات اسمي الأول إلى (جاك) على الطريقة الأمريكية في رفع الكلفة). قلت: «لا يا ديمري! أخبرني!» قال: «آه! قصة طويلة ومرعبة بعض الشيء». قلت: «مرعبة؟ كيف؟» قال: «كان هناك جهاز استخباري ضخم يحاول قتلها، بالإضافة إلى المافيا والبيت الأبيض». قلتُ: «فظيع!» قال: «ولم تكن حياتها وحدها المهددة بل شمل الخطر حياة كل من عرفها». قلت: «عجيب!» قال: «وما وجه العجب؟». قلت: «مارلين تزوجت الكاتب المسرحي الشهير آرثر ميلر، وقضت معه عدة سنوات ولم ير إلا العافية حتى ملّته أو ملّها فانفصلا». هنا، يا عزيزتي، بدأ البروفسور يختلط. قال: «من هو آرثر ميلر؟ أنا لم أسمع به. ومارلين لم تقل لي أنها تزوجت شخصاً يدعى آرثر

ميلر». قلت: «النساء يكذبن (عفواً، يا عزيزتي!) ولعل مارلين لم تشأ أن تثير غيرتك، أو ربما تعرفت عليها أنت قبل أن تعرف ميلر». قال: «عرفتها في أواخر حياتها ولم تقل شيئاً عنه». قلت: «حسناً! دعك من ميلر الآن. كيف تعرّفت على مارلين؟. وماذا كان من أمركما؟ وهل ما قاله توني كيرتس عنها صحيح؟». قال: «من هو توني كيرتس؟» قلت: «نجم سينمائي شاركها بطولة فلم شهير من أفلامها». قال: «وماذا قال عنها؟» قال: «كان تقبيل مارلين مونرو شبيهاً بتقبيل هتلر!». قال: «هتلر؟! أعوذ بالله! ولكن كيف لي أن أعرف وأنا لم أقبّل هتلر؟».

صمت البروفسور يتأمل ثم قال: «كانت قصتي معها قصة مثيرة جداً. كان يجب أن تتحول إلى فلم سينمائي. وربما تحوّلت إلى فلم سينمائي دون أن أعرف». قلت: «كل شيء تقريباً ممكن». قال بحدّة غير متوقعة: «ماذا تقصد تقريباً؟». قلت: «أقصد كل شيء ممكن بلا استثناء». قال: «هذا أفضل». قلت: «حدثني عن قصتك مع مارلين». قال على الفور: «من هي مارلين؟». قلت: «مارلين مونرو النجمة السينمائية الشهيرة التي كانت بينك وبينها علاقة». قال: «كانت لديّ علاقات مع كثير من

الممثلات السينمائيات ولكني لم أسمع بمارلين مونرو من قبل». قلت: «حسناً! حسناً! لا تدع الأمر يزعجك. اعتقدت أنك قلت لي أنك...» قاطعني: «أنت تتوهم، يا جاك. أنت، في تصوري، رجل محروم. وأظنك حُرمت المرأة التي تسمّيها مارلين مونرو فتوهمت أن لك علاقة بها، ثم توهمت أني صاحب العلاقة. ثم توهمت أني أخبرتك أني صاحب العلاقة. أليس الأمر كذلك؟». قلت: «يبدو أنه كذلك». قال: «ماذا تقصد بـ يبدو؟». قلت: «هو كذلك بكل تأكيد». هل تريد أن تحدثني عن مغامراتك الأخرى؟. ابتسم البروفسور وقال: «أرى أنك سمعت عن مغامراتي مع أني أحاول هنا أن أظهر بمظهر الشخص العادي، مثلك تماماً، الشخص الذي لم يقم بإنجازات خارقة، ولم يغيّر خارطة العالم». قلت: «عفواً! خارطة العالم، حسب علمي، لم تتغيّر. كل قارة ما زالت في مكانها لم تبرحه». ضحك البروفسور، وأشعل سيجاراً ضخماً، وقال: «جاك! هل كنت ممثلاً كوميدياً؟!». قلت: «اضطررت إلى التمثيل الكوميدي والدرامي في مواقف عديدة ولكني لم أكن ممثلاً محترفاً». قال: «ماذا كنت إذن؟». قلت: «عملت أشياء

مختلفة ولكنني لم أحقق إنجازات خارقة ولم أعبث بخارطة العالم. حدِّثني أنت كيف غيّرت هذه الخارطة؟». قال: «الحقيقة أني حاولت تغيير خارطة العالم ولكني لم أفلح». قلت: «صحَّ منك العزم والدهر أبى؟». قال: «لا! الدهر ليس له علاقة بالموضوع. كانت المشكلة مع دِكي المحتال». قلت: «عفواً! من هو دِكي المحتال؟». قال: «ألا تعرفه؟». قلت: «لا أظن». قال: «نيكسون!». قلت: «ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة الأسبق؟!». قال: «هو بعينه». قلت: «هل كنت تعرفه؟». قال: «أعرفه؟! هل تمزح؟! كنت أنا الذي أسيّره. كان مجرد ألعوبة في يدي». قلت: «كيف إذن منعك من تغيير خارطة العالم؟». قال: «رفض أن نلقي قنابل ذرية على شمال ڤيتنام». قلت مذهولاً: «قنابل ذرية؟ كنت تريد تدمير شمال فيتنام نهائياً؟!». قال: «لا تكن غبياً! أربع أو خمس قنابل ذرية لا تدمر ڤيتنام. كل ما هنالك أنها سوف تقضي على مليونين أو ثلاثة من البشر الزائدين عن الحاجة، وتحطم العمود الفقري للدولة، وتضمن انتصار ڤيتنام الجنوبية، وتوقف تساقط أحجار الدومينو، وتزهق أنفاس الشيوعية في كل مكان».



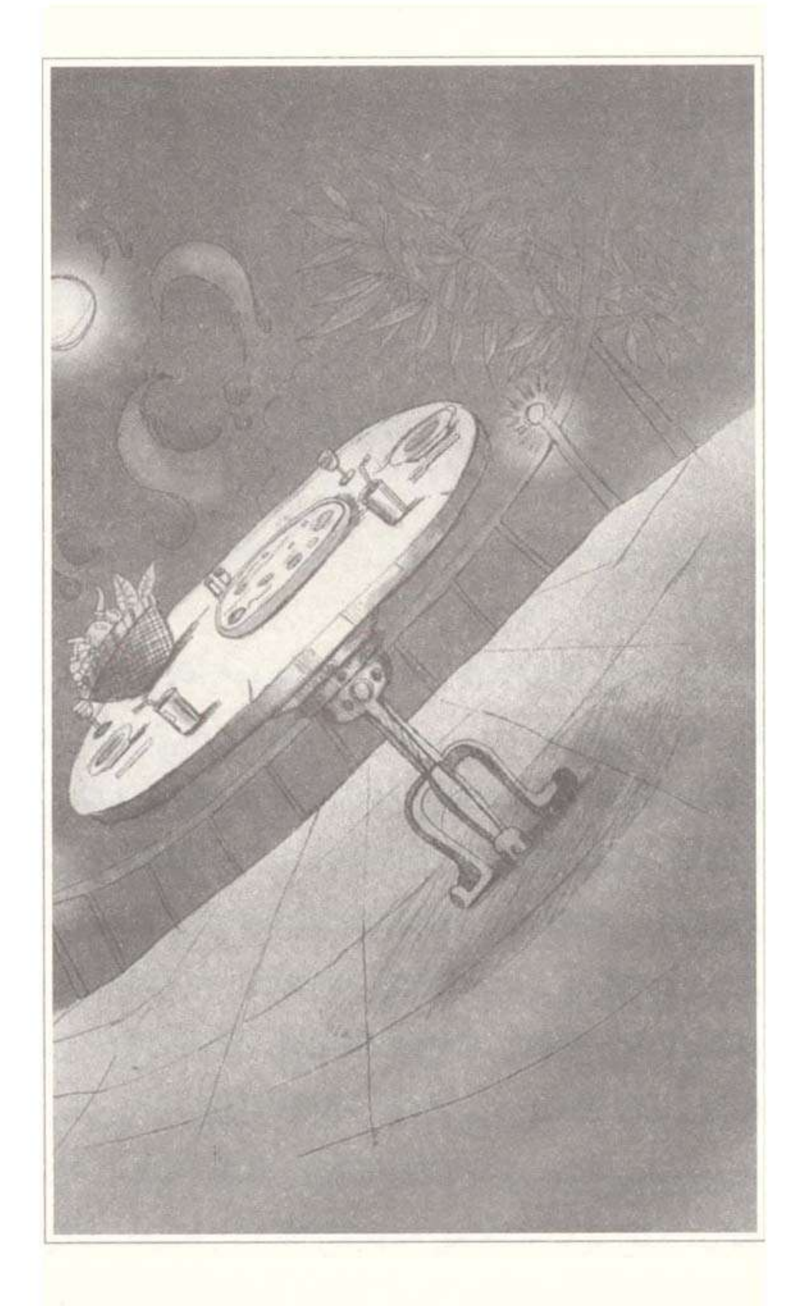
قلت: «ولماذا منعك دِكي المحتال من إلقاء هذه القنابل؟». قال: «لأنه كان جباناً رعديداً رغم عنترياته. هل تعرف أنه كان يكره اليهود؟!». قلت: «لا أعرف الكثير عن نيكسون». قال: «أنا أعرف كل شيء. هل تعلم أنه هو الذي منع إسرائيل من إلقاء قنبلة ذرية على السد العالي أيام حرب الغفران؟». قلت: «لا. لم أكن أعرف». قال: «ذهبت إلى إسرائيل مع بداية الحرب ووجدت الجميع في حالة يأس وارتباك. حتى الحيزبون الحديدية جولدا مائير كانت تفكر في الانتحار. قلت لهم: «يا جماعة! يا جماعة! لم الخوف والارتباك؟ قنبلة ذريّة صغيرة على السدّ العالي وتنتهي كل مشاكلكم». قالوا: «هل يسمح لنا الرئيس نيكسون بذلك؟». قلت: «ارموها، أولاً، واطلبوا رأيه بعد ذلك!». رفض الجبناء وأصرّوا على أن آتيهم بضوء أخضر من نيكسون. هاه! ضوء أخضر! هل أنا إشارة مرور؟! أنا بروفسور استراتيجي عبقري دموي عنصري لا أؤمن بالأضواء الخضراء. المهمّ أنهم أصرّوا. عدت إلى واشنطن وذهبت إلى دِكي المحتال. قلت له: «دِك! أصدقاؤنا وحلفاؤنا الإسرائيليون في ورطة. باغتهم المصريون

والسوريون اللئام في يوم عبادتهم. وهم الذين تعوّدوا أن يباغتوا الناس، فأصيبوا بقلق وذعر وبلبلة. وهم يطلبون منكَ الإذن بإلقاء قنبلة صغيرة على السدّ العالي». «قال مستغرباً: «قنبلة صغيرة؟! ما الذي ستفعله قنبلة صغيرة في السدّ العالي؟»». قلت: «قنبلة صغيرة ذرية». هنا انفجر دك وبدأ يصرخ، وانهمرت من فمه كلمات عنصرية بحقي وبحق اليهود كلهم، قال: «يا ثور! يا حمار! أيها الصبي اليهودي الأبله! هل جننت؟ قنابل ذرية كل يوم! قنابل ذريه على شمال فيتنام! وقنابل ذرية على السد العالي! أقسم بلحية لنكولن أنه لولا خوفي من اللوبي الصهيوني لطردتك، الآن، شر طردة». غضبت، يا جاك، بدوري وكدت أن أبصق عليه لولا أني تذكرت أنّه الرئيس وأنا أعمل موظفاً عنده. سبق أن قلت لك أني كنت موظفاً عنده، أليس كذلك؟ قلت: «سبق أن قلت لي أنه كان ألعوبة في يدك وأنك كنت تسيّره». قال: «صحيح! صحيح! ولكني، مع الأسف، كنت موظفاً عنده. المهم أنني أدركت أني خسرت معركة القنبلة الذرية ولم أشأ أن أخسر معركتي الأخرى». قلت لدِكْ: «أخشى أن يستخدم الإسرائيليون القنبلة دون إذن منك».

قال: «لا! لا! لا! لا بد أن نقنعهم بعدم استخدامها. ماذا تقترح؟». قلت: «اقترح،سيدي الرئيس، أن نزودهم فوراً، في الحال، الآن!، بأحدث ما يملك الجيش الأمريكي من معدات مع الخبراء الضروريين». قال: «هل سيمنعهم هذا من إلقاء القنبلة الذرية؟». قلت: «أعتقد أني أستطيع أن أقنعهم». قال: «حسناً! هذه تعليماتي: كُبّ الأسلحة عليهم كبّاً. وأكثر من الطائرات. وأفرغ مخازن حلف الأطلنطي من محتوياتها وأرسلها إليهم. مدّ أكبر جسر جوي في التاريخ بيننا وبينهم. وعند انتهاء المعركة إذهب إلى أصدقائنا العربان وأقنعهم أن ما فعلناه كان لصالحهم، ولم يكن بالإمكان أفضل مما كان». وهذا ما حدث يا عزيزي جاك. انتصر الإسرائيليون. وقمت بجولات مكوكية. استطعت خلالها إقناع الرجاجيل الكبار الساكنين في الخيام بقبول ما حدث ووقع البعض اتفاقيات مع إسرائيل، فوق البَيْعَة». قلت: «برافو! لله دَرُّك! يبدو أنك كنت تتبع خطوات الدكتور هنري كيسنجر». قال: «أنا هو!». قلت: «أنت الدكتور هنري كيسنجر؟!». قال: «نعم». قلت: «ولماذا تسمي نفسك ديمري ويلنجر؟!». قال: «سبق أن أخبرتك أني

أحب أن أظهر بمظهر الرجل العادي. لا أود أن يعرفني أحد. أنت الوحيد الذي أخبرته الحقيقة لأني أثق ثقة مطلقة في الأغبياء». قلت: «أقدّر ثقتك». قال: «من أين أنت، يا جاك؟». قلت: «من العربان». قال: «أرأيت كيف ضحكنا عليكم؟» قلت: «وايش فيها ذي؟ كل الناس يضحكون علينا». قال: «هذا صحيح!». لا أدري، يا عزيزتي، هل البروفسور هو حقاً كيسنجر أم أن ذلك جزء من هلوسة متطورة جداً. لا! لم يكن يشبه كيسنجر، وعزا ذلك إلى أنه قام بعمليات غيّرت شكل وجهه. هنا، يا عزيزتي، يختلط كل شيء بكل شيء، تختلط الحقائق بالأوهام، ويختلط البروفسور بالبروفسور. وكل شيء هنا ممكن. وكل شيء هنا مستحيل!

((5))



عزيزتي،

لم تطل حالة السرور التي شعرت بها خلال حديثي مع البروفسور ديمري ويلنجر. منذ رسالتي الأخيرة وأفكار حزينة قاتمة تنتابني، وتأبى أن تفارقني. أنذرني الأطباء هنا، مراراً وتكراراً، أن حالات الكآبة شيء مألوف في ضيافة العزيز ألزهايمر، وأنها تأتي وتذهب، بسبب أو بلا سبب، وقد تطول وقد تقصر. حسناً! سمعنا وأطعنا! آه! الأفكار الحزينة القاتمة! منذ دخولي هذا المكان وأنا أتعامل مع الحياة بفلسفة جدّي الذي عمّر حتى تجاوز التسعين دون أن يصاب بِعَتَهٍ أو خَرَف. كان يقول: «كل يوم أعيشه هو هدية من الله ولن أضيّعه بالقلق

من المستقبل أو الحسرة على الماضي». لم يكن جدي فيلسوفاً؛ كان إنساناً بسيطاً أخذ حكمته، إن كانت حكمة، من طبيعته البسيطة. منذ دخولي هنا وأنا أرفض التفكير في المستقبل، وأرفض الاستسلام لإغواء الماضي. أعيش يومي لحظة بلحظة ساعة فساعة. ولكن هل أنجح كما نجح جدّي؟ وهل نجح جدي، حقاً، في تطبيق فلسفته؟ كنت أراه، حتى في عامه الأخير، دائم الانشراح قليل الشكوى، ولكن من يدري ماذا كان يدور في أعماقه. انظري، يا عزيزتي، كيف تسرّبت ذكريات الماضي حتى عند الحديث عن شخص كان ينصح بعدم التفكير في الماضي. من يستطيع أن يفعل ذلك؟ أن يتجاهل الماضي كله؟ أنا! ولكن ليس الآن! عندما يتغلغل العزيز ألزهايمر في خلايا الدماغ سوف يحرق الماضي بأكمله. آه! سياسة الأرض المحروقة! أرض الماضي المحروقة! هذه الفكرة، على الأخص، هي التي تسبب لي الكآبة. أنْ أُصبحَ رجلاً بلا ماضٍ، بلا ذكريات، بلا أمس. تصوّري! أن ينسى الإنسان ابتسامة أمه المضيئة، أن ينسى ملامح أبيه الرضيّة، أن ينسى كل صديق عرفه، أن ينسى اسم زوجته الأولى، ألاّ يتعرف على زوجته

الثانية لو رآها، مصادفة، في الطريق. تصوّري! والطامَّة الكبرى أن ينساك أنت: آخر الزوجات، آخر النساء، آخر المرافئ. أليست هذه كارثة الكوارث؟! تصوري أن أنسى لقاءنا الأول! تصوّري! لحظة! لا بد أن أسجّل هنا تفاصيل هذا اللقاء. للحقيقة وللتاريخ! هل تذكرين؟ سؤال سخيف، بعض الشيء! لقاؤنا الأول لم يكن رومانسياً. كان أبعد ما يكون عن الرومانسية. كان شبه عدواني! كنت أنا في منتدى اقتصادي وكنت أتحدث في جلسة من جلسات المنتدى عن تأثير المضاربات في أسعار عدد من المواد الخام. أيامها كانت مضاربات المستقبل ظاهرة جديدة نسبياً ـ وكانت موضوع الساعة. كنت، وقتها، رئيساً لمجلس إدارة بنك الدهناء وكنت أتحدث بقدر غير قليل من الثقة. وكنتِ أنتِ بين الجمهور الصغير تستمعين باهتمام. بمجرد أن بدأتُ الحديث جُذبتْ عيناي إلى وجهك كما تنجذب السفن في قصص السندباد إلى جبال المغناطيس. لاحظت أنت وابتسمت ابتسامة خفية جداً. هل تذكرين؟ كنت أحاول بجهد جهيد، أن أقسّم عينيّ على الموجودين والموجودات في القاعة، وعليك. تعلمتُ، منذ أيام

الإنشاء الشفوي في المدرسة الابتدائية، وأظن: أنه أَخْنى على هذه المادة الجميلة ما أخْنى على لَبِدٍ، أنه لا يمكن للمتحدِّث أن يؤثر في جمهوره إذا كان يقرأ من ورقة، أو يتكلم وهو ينظر أمامه فقط، أو يتحدث وهو يرفع رأسه إلى السقف، كما يفعل عقيد ما. المهمّ أني حاولت أن أتخلص من أسر عينيك وأنتقل إلى وجوهٍ أخرى، ونجحت نجاحاً محدوداً. استغرق حديثي نصف ساعة ثم جاء دور النقاش. وقفتِ أنتِ وقلت بالحرف الواحد: «نرمين يسري مديرة قسم الاستثمار. بنك المعادي الدولي. وبدأ العدوان الكلامي بسؤال/قنبلة: «أستاذ يعقوب! (شكراً على الأستاذية!) ملاحظاتك عن أثر الأسواق المستقبلية في الأسعار تسري على سعر البترول وحده، أما المواد الخام الأخرى فتأثير المضاربات على أسعارها محدود جداً. ما رأيك؟ وشكراً». رأيي أنه سؤال في الصميم. ماذا أفعل؟ المخرج المعتاد. ابتسمت ابتسامة كبيرة وبدأت وصلة طويلة من تلك الوصلات التي يتقنها أساتذة الجامعات والساسة والدبلوماسيون والمذيعون، الكلام الحلو المنمّق الذي لا يعني شيئاً، لا يعني أي شيء على الإطلاق. واستمعتِ وأنتِ تبتسمين.

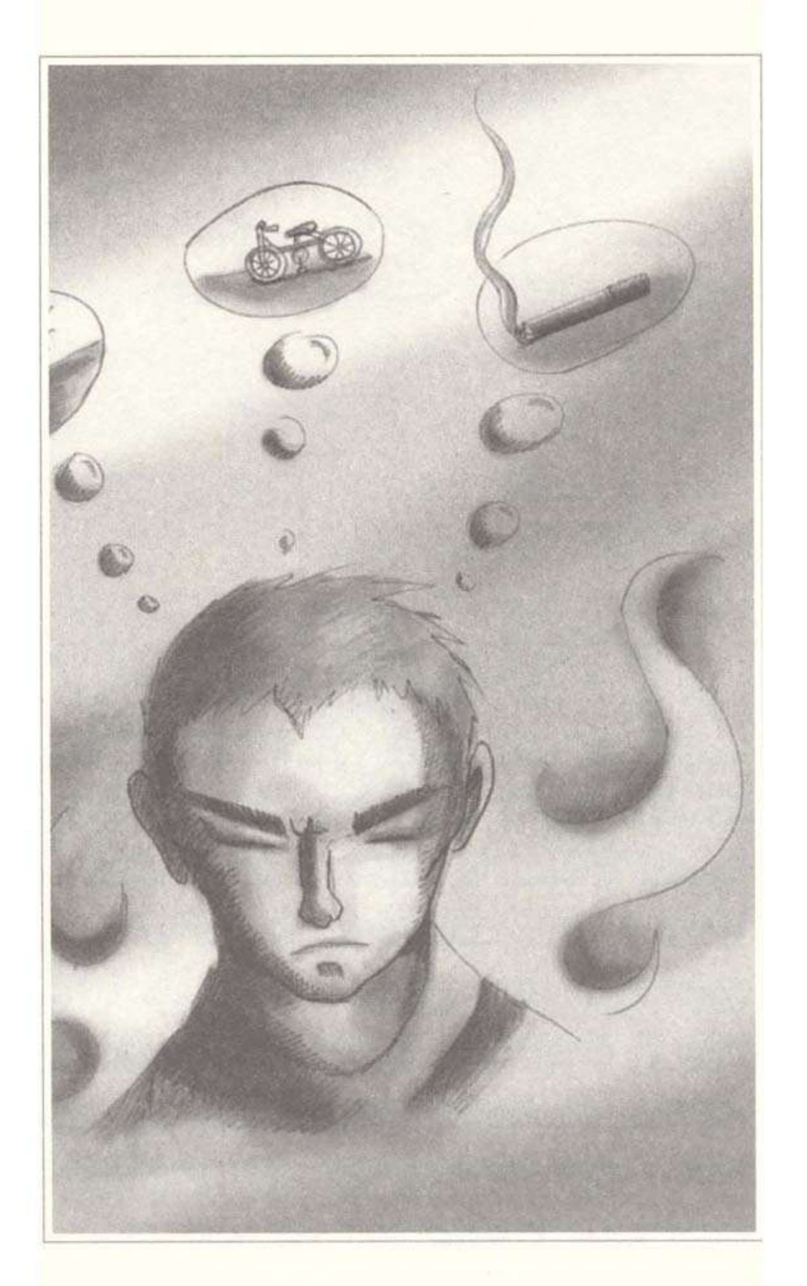
ثم جاءت أسئلة أخرى من آخرين وأخريات، وأجوبة منمّقة، وانتهت الساعة على خير. وانتهى العدوان! اتجه الجمهور الصغير إلى الباب، واتجهت إليك، وكنتِ وقتها، عمداً أو مصادفةً، متجهةً إليّ. التقينا في منتصف الطريق. وصافحتك، وبجرأة غير معهودة، سألتك إذا كان بالإمكان أن نتناول العشاء معاً ذلك المساء. وبسرعة غير متوقعة وافقتِ. وشهد منتجع «شرم الشيخ» ولادة الحب الكبير، الحب الأكبر، في حياتي. تصوّري أن أنسى هذا كلّه، كلّه!، ذات يوم: نرمين يسري! مضاربات المستقبل! شرم الشيخ! العشاء الأول: بيتزا فواكه البحر مع النبيذ الأبيض المصري! وتحدثنا! وتحدثنا! واكتشفت الجوانب الأخرى في مديرة الاستثمار التي وصلت إلى منصبها قبل أن تصل إلى الثلاثين. لا يقلّل من شأن الإعجاز أن والدها يملك البنك! هاه! هاه! أنا، بدوري، لم أكن لأصبح رئيساً لمجلس إدارة بنك لولا الأسهم التي ورثتها عن والدي، رحمه الله. حسناً! خدمك الحظ، في شكل أبيك، كما خدمني، في شكل أبي. وماذا في ذلك؟! أنا، كما تعرفين، يا عزيزتي، أؤمن أن للحظ دوراً أساسياً في أي نجاح يحققه أي

إنسان، أو أي شعب (لو كان للشعوب المتخلفة حظ لما ابتليت بالزعماء الذين حكموها، ولا يزالون). استعرضي قصص النجاح كلها، وستجدين أن الحظ تدخّل، في لحظة مفصلية حاسمة، لتحقيق النجاح. وتابعي قصص الفشل كلّها وستجدين أن الفاشلين لم يكونوا، دائماً، أقلّ موهبة أو طموحاً أو حماسة من الناجحين، إلا أن الحظ لم يتدخل، في اللحظة المفصلية الحاسمة، أو تدخل في البداية ثم هجرهم في تلك اللحظة. يروى أن نابليون كان يسأل قبل تعيين أي قائد من قُواده: «هل هو سعيد الحظ؟». وكان نابليون نفسه من أسعد الناس حظاً ـ وصل إلى رتبة الجنرال في عامه الرابع والعشرين! ـ إلى أن قرّر أن حظه سيتبع خطاه حيثما ذهب. وذهب بعيداً جداً. إلى روسيا. ولم يستطع حظه اللحاق به. وكان ما كان. وقضى الامبراطور سنواته الأخيرة يزرع الزهور ويربّي الدجاج. وكان هتلر أسعد حظاً من نابليون. كان رجلاً متوسط الذكاء، رسّاماً من الدرجة الثالثة، ومتطرفاً إلى حد الجنون. وقاده حظه إلى مرحلة في التاريخ الألماني كانت الجموع فيها يائسة بائسة تفضّل الخبز مع الطاعة على الحرية مع الفوضى. وتوقع هتلر،

بدوره، أن يتبعه حظه الحسن وهو يقفز من مخطط جهنمي إلى آخر. إلا أن الحظ، على ما يبدو، ليس مغرماً بملاحقة أصحابه إلى روسيا المثلّجة. وكان ما كان. حتى في الساعات التي سبقت انتحاره كان هتلر واثقاً من أن حظه الحسن سوف يتدخل وينتشله من الهاوية. وأنا، يا عزيزتي، أسعد الناس حظاً. ولولا حظي الحسن ما لقيتك وتزوجتك، وجاء زهير، وجاءت هيفاء، واكتملت الأسرة. تصوري أنْ أنسى اللحظة التي ولد فيها زهير بعد ساعات طويلة من المخاض كنتُ خلالها أعبر ممرات المستشفى جيئةً وذهاباً ولا أستريح دقيقة واحدة. تصوّري أن أنسى اللحظة التي ولدت فيها هيفاء بعد مخاض استغرق الليل كله، وجزءاً من الصباح، وكنت أتمدّد على سرير مؤقت بقربك دون أن تذوق عيناي دقيقة من النوم. تصوّري أن أنسى كل حالة حب عشتها! (قبلك بطبيعة الحال) كلّ حسناء رأيتها. حتى زوجتي الأولى التي أُجبَرتْ على الزواج مني، وأُجبْرتُ على الزواج منها. وكنا مراهقين، لا أودُّ أن أنساها. كان الزواج مأساة منذ لقاء الفتى بالفتاة في الليلة الأولى إلى الفراق بعد شهور قليلة. اكتشف الرجلان اللذان أرغمانا

على الزواج، أبي وأخوه، أبوها، أنهما لم يحققا أي تقارب عائلي بهذه الصفقة، بل، على العكس، هددا العلاقة الأخوية بالانهيار. حسناً! ذهبت عفاف في طريقها، وتزوجت، وأنجبت، ولم أرها من ذلك الحين. وهل يمكن أن أنسى عشرين سنة كاملة من الحرية بعد الانفصال؟ هل يمكن أن أنسى الأوقات المثيرة، والأوقات المملّة، والحكايات الضاحكة والمآسي الدامعة؟ يا الله! هل يجيء يوم وأنسى فيه هذا كله، كله؟! لعلّك تدركين الآن مدى الكآبة التي أثارتها هذه الأفكار السوداء. يكفي! هل تعرفين ما سأفعل؟ سأذهب إلى صورتك وأقبّلها وأقول لنفسي: «لا! لا! لن أنسى لن أنسى نرمين حتى أموت! وليذهب ألزهايمر إلى الجحيم هو ومرضه!».

« 6 »



عزيزتي،

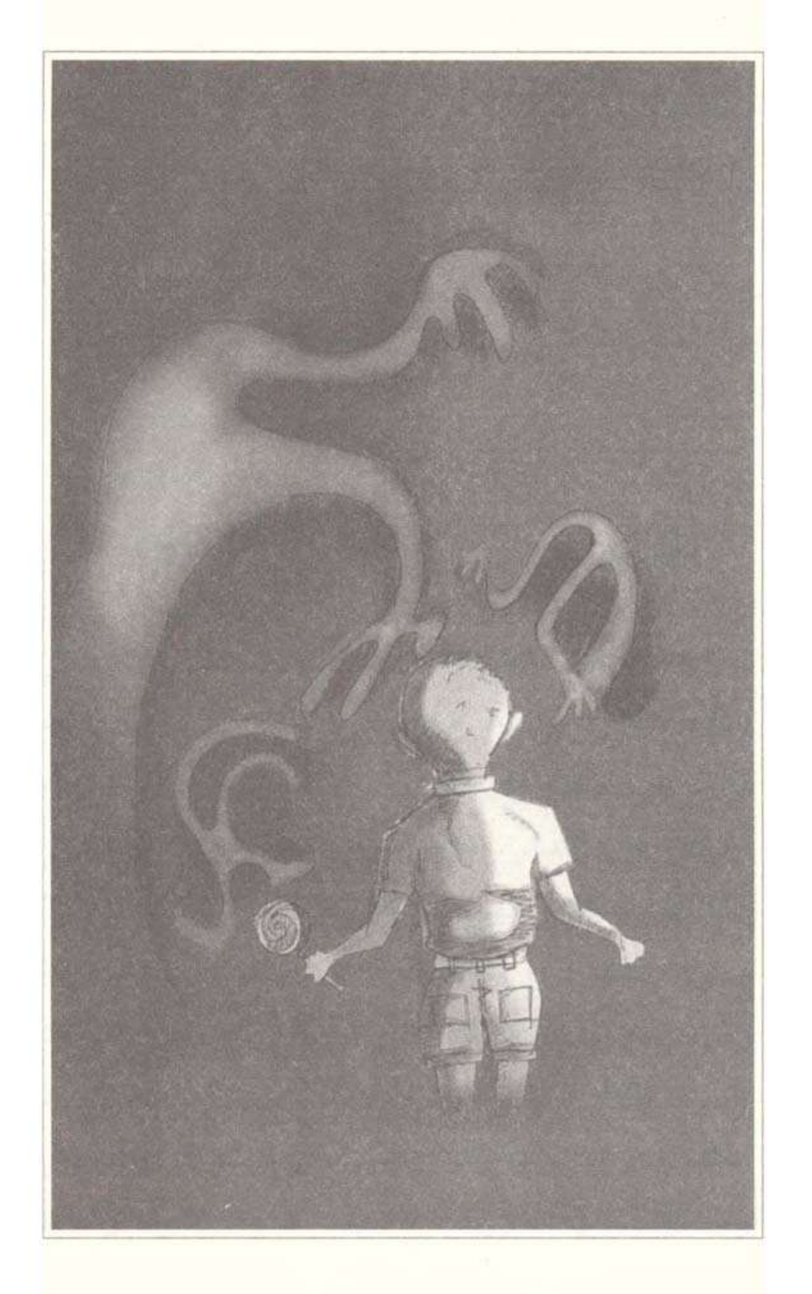
نجح علاج الصورة، وتحررت مؤقتاً من الماضي، بخيره وشره. ولكن الشفاء كان قصير الأجل. سرعان ما عادت ذكريات الماضي تهاجمني بإصرار، كما تهاجم النسور جثة حيوان ميت. كلّ ذكرى تريد أن تسجّل نفسها، أن تثبت وجودها، أن تحصل على شهادة بأنها على قيد الحياة، قبل أن ترحل إلى الأبد. سبحان الله! هل للذكريات حياة؟ هل لها روح؟ هل لها عقل؟ هل تشعر أنها، بعد حين، لن تجد مأوى في الذاكرة فتضطر إلى الهيام، شريدة طريدة، بلا ملجأ؟ هل هذه الذكريات كالأرواح المنكودة التي غادرت أجسادها ولم تستطع التحرّر من سجن الأرض فأصبحت أرواحاً ضائعة لا يؤويها أحد؟ وهل هناك تراتبية بين

الذكريات؟ هل هناك طبقية؟ هل هناك تفرقة صارمة كالتي تميّز بين بشرٍ من الدرجة الأولى وبشرٍ من الدرجة الثانية وبشرٍ تحت خط التصنيف (وهذا مثل خط الفقر يضم الغالبية العظمى من البشر)؟ لم تكن هذه الأسئلة مهمّة في الماضي، ولكنها، الآن، تتطلب أجوبة. لم يعد الوقت يتسع لكل الذكريات، ولا أعرف أنا كيف أنظمها. ليس لي سوى أن أترك الأمر للذكريات نفسها، ترتّب أولوياتها في ما بينها بطريقتها الخاصة، وأفتح خلايا المخ، وأنتظر. هذا ما فعلته. فجأة، جاءت ذكرى البلوغ، ساخنة سخونة السائل الأبيض اللزج الذي كنت أنتظر وصوله بشغف، والذي تشبه رائحته رائحة لقاح الزهور. كنت أقرأ هذا في مجلة «طبيبك»، وكانت وقتها رائجة في كل مكان وخصوصاً بين المراهقين، ولم أكن أعرف لقاح الزهور ولا رائحته. الآن، أرى أنه من الطبيعي أن تتشابه الرائحتان ما دام الغرض، التلقيح، واحداً. جاء البلوغ وانتقلتُ من مرحلة إلى مرحلة. هل انتقلت من الطفولة إلى الرجولة؟ هذا ما كان يجب أن يحدث. هذا ما كان يحدث في الحضارات القديمة كلّها، ما تنصّ عليه القوانين القديمة كلّها، ما تقضي به الأعراف القديمة كلها. إلا أن هذا لم يحدث. ولماذا لم يحدث؟ لأن سادتنا سابقاً،

وربما لاحقاً، المستعمرين الغربيين ابتدعوا مفهوم المراهقة الذي ما أنزل الله به من سلطان، ونقلناه عنهم، حسب العادة. نظرية المراهقة من أسوأ النظريات التي تمخضت عنها العصور الحديثة. أن لا تكون صبياً ولا تكون رجلاً. أن تبقى معلقاً، بضع سنين، في تلك المنطقة الرمادية حيث يكفّ الصغار عن اللعب معك ويرفض الكبار أن يعتبروك واحداً منهم. سنوات المراهقة في حياة كل إنسان (وإنسانة) هي سنوات ضائعة لا معنى لها مَسْروقةٌ من الطفولة والرجولة معاً. فجأة، يبدأ نساء الحيّ يتحجبن منك، لأنك أصبحت رجلاً، ولكن ماذا عن الرجال؟ أنت ما زلت في نظرهم ذلك الصبي الذي لا يُسمح له بممارسة أي مسؤولية من مسؤوليات الرجال. أرأيتِ، يا عزيزتي أسخف من هذا المنطق؟ تتحول البنت مع البلوغ إلى امرأة تستطيع أن تتزوج وأن تُنجِب وأن تربّي أولادها (كما فعلت أمهاتنا وأمهاتهن وجداتهن). والولد، بدوره، يستطيع أن يتزوج وأن ينجب وأن يعتني بأولاده (كما فعل أجدادنا وأجدادهم). كانت الأمور تسير على هذا النحو خلال فترة التاريخ غير المكتوب كلها، ومعظم فترة التاريخ المكتوب. ثم ظهرت نظرية المراهقة فأفسدت حياة الجميع: حياة المراهق والمراهقة، وحياة

الوالدين، وحياة المجتمع بأكمله. ظهرت مشاكل لم تُعرف من قبل عبر التاريخ: طيش المراهقة وجنون المراهقة، عُقَد المراهقة، إلى آخر القاموس الذي يتضّخم كل يوم. في باديتنا، عبر تاريخها، لم يوجد مراهق واحد أو مراهقة واحدة. كان الصبي، مع البلوغ، يتحول إلى رجل: يحمل البندقية ويقاتل مع الرجال. وكانت البنت، فور البلوغ، تصبح امرأة كاملة الأنوثة (فلندع الاستثناءات الآن، فلكلّ قاعدة استثناء). وفي جنوب بلادنا، كما هو الحال في مناطق عديدة من العالم قبل قدوم المكتشفين ورسل الحضارة الحديثة، كانت هناك طقوس معروفة للبلوغ (أو العبور حسب أدبيات الأنثروبولوجيا) وكان الهدف منها إعلان ميلاد الرجل على الملأ. أعتذر، يا عزيزتي، فأنا لا أنوي محاضرتك ولكنها، كما يقال: «سيرة وانفتحت»، والذي فتحها هو أن فترة المراهقة كانت أتعس فترة في حياتي ولعلها أتعس فترة في حياة كل إنسان. حسناً! لا أستطيع أن أبقى إلى الأبد مع ذكرى السائل الأبيض وما أثارته من تداعيات. كان لا بد من طرد الذكرى، وهذا ما فعلته ونجحت بعد مجهود شاق. فتحتُ خلايا المخ من جديد وبقيت أنتظر الذكريات القادمة.. وأنتظر.. وأنتظر!

« 7 »



عزيزتي،

منذ ذكرى البلوغ وذكريات «المرة الأولى» تهاجمني بعنف. شيء غريب. منذ سنين، سنين طويلة، لم أعد أتذكر متى فعلت هذا الشيء أو ذاك «للمرّة الأولى». ولم أحرص على التذكر. هل حكاية «المرة الأولى» مهمة إلى هذه الدرجة؟ هل يهمّ متى ركبت الطائرة للمرة الأولى؟ ومتى دخنت أول سيجارة؟ ومتى امتطيت أول دراجة؟ ومتى طفوت على الماء لأول مرة؟ تزعجني ذكريات «المرة الأولى» لأنها تجيء ثم تتملّص وتهرب قبل أن تتكشف. معظم هذه الذكريات غادرت الذاكرة منذ زمن وحلّت محلها ذكريات لاحقة، المرة الثانية والثالثة

والعاشرة والألف. حسناً! أعتقد أن هناك أموراً لا ينساها الإنسان، أو يصعب أن ينساها. القبلة الأولى. الموعد العاطفي الأول. المرّة الأولى التي نفقد فيها براءتنا الجسدية (هل أضيف المرة الأولى التي نفقد فيها براءتنا الروحية؟!). مشكلتي ليست مع هذه الأشياء التي لا أظن أني سأنساها إلاّ حين يزيل العزيز ألزهايمر النقوش كلها من اللوحة بأكملها. حاولت، مؤخّراً، أن أتذكر أول سمكة اصطدتها، ولم أستطع. وأول فلم سينمائي رأيته، ولم أتمكن. تتوالى الأشياء، يا عزيزتي، ويتوالى العجز عن تذكّرها. الكتاب الأول. الحذاء الأول، الصورة الفوتغرافية الأولى. اليوم الدراسي الأول. والقائمة لا تنتهي. أرجو أن تكون هذه مرحلة عابرة. من المزعج أن أظل معتقلاً في سجن «المرة الأولى». رأيت من المفيد أن أشرك غيري معي في المشكلة. قبل ليلتين كنت في غرفة التلفزيون (هنا غرفة لكل شيء.. تقريباً!) مع اليزابيت جرينجر. هي بذاتها! لا بدّ أنك سمعت عنها. البليونيرة التي تحمل مئات الفنادق اسمها، والتي تحمل مسحةً من جمال غابر (أكثر من مسحة إذا أردتُ الدقة). قلت: «ليز! (سبق أن أخبرتك أننا نرفع الكلفة هنا!) هل

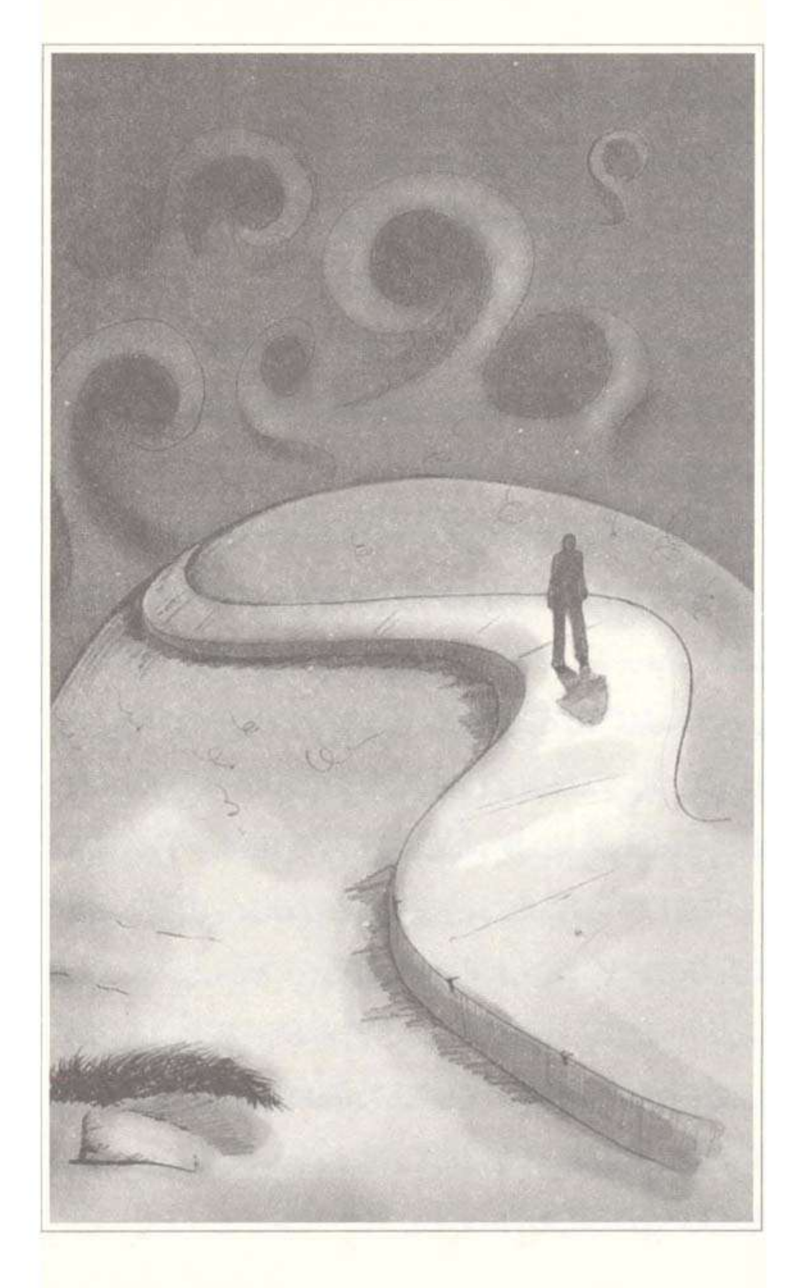
تذكرين قبلتك الأولى؟» قالت على الفور: «بكل تأكيد!». وانطلقت تروي تفاصيل طويلة. ومملّة بعض الشيء، عن الظروف التي قادت إلى قبلتها الأولى وكانت في الحادية عشرة. قاطعتها بلباقة: «حسناً! وهل تذكرين متى أرتديت الكعب العالي للمرة الأولى؟». أطرقت قليلاً، وقالت: «نعم. وأذكر الحفلة. كنت في السنة قبل الأخيرة من دراستي الثانوية.». قلت: «وماذا عن قلمك الأول؟». قالت: «لم يكن هناك قلم واحد. ذهبت في يومي الدراسي الأول إلى الفصل ومعي مجموعة من أقلام الرصاص الملونة». قلت: «إذن، أنت تذكرين يومك الأول في المدرسة؟». ابتسمت، وقالت: «جاك! ما هذه الأسئلة الغريبة؟ ألا تعرف أننا هنا لأننا لم نعد نتذكر ما مرَّ بنا؟!». قلت: «أعرف. أعرف. ولكني أمرّ بفترة غريبة. ذكريات «المرة الأولى تحاول أن تفرض نفسها على ذاكرتي رغماً عني وأحاول طردها». قالت: «وهل نجحتَ؟». قلت: «نجحت في القليل وفشلت في الكثير». ابتسمت اليزابيت وقالت: «هل تعرف مشكلتي أنا يا جاك؟ مشكلتي هي مع ذكريات «آخر مرة!»؛ متى كانت آخر مرة استمتعت فيها بالجنس؟ آه! ليتني أتذكر!

متى كانت آخر مرة استمتعت فيها برؤية مسرحية؟ لا أتذكر. متى كانت آخر مرة قبّلت فيها أمي؟». يبدو أن ذكرى الأم أثارت شيئاً من الشجون في نفس اليزابيت التي لزمت الصمت بضع دقائق قبل أن تقول: «دعنا نغير الموضوع. أول مرة! وآخر مرة! عن قريب سوف ننسى كل شيء. ألا ترى أن من العبث أن تهدر جهد الخلايا الباقية في تذكر هذا أو ذاك؟». قلت: «كلامك صحيح، نظرياً، ولكن من الناحية الواقعية هل يمكن أن نبحث شيئاً، أي شيء، من دون أن يكون للذكريات، على نحو أو آخر، نصيب كثير أو قليل منه؟». قالت: «جاك! دعنا من الفلسفة!». قلت: «آه! ليز! الفلسفة! هل تستطيعين أن تنطقي بهذه الكلمة من دون أن ترتسم في خيالك صور سقراط وأفلاطون وأرسطو؟». قالت: «ماذا دهاك اليوم؟!». قلت بعناد: «لا شيء، لا شيء على الإطلاق، يمكن أن يُبحث دون أن تصحبه ذكرى من نوع أو آخر». قالت: «هل تقصد أننا.. عندما.. عندما.. لا نستطيع أن نبحث شيئاً على الإطلاق؟». قلت: «أخشى أن هذا، بالضبط، هو ما أقصده». صمتت إليزابيت، وشردت نظراتها، وبغتةً غادرت الغرفة. أعود إليك يا

عزيزتي، لماذا لا تمارسين هذه اللعبة على سبيل التسلية؟ تذكري أول مرة فعلت فيها هذا، وأول مرة فعلت فيها ذاك؟ وخلال اللعبة فكرت في موضوع يشغلني (وما أكثر المواضيع التي تشغلني) لماذا يلعب الماضي هذا الدور الكبير في حياتنا؟ قارني عدد الكتب التي تتحدث عن المستقبل وعدد الكتب التي تتحدث عن الماضي وأظن أنك ستصابين بصدمة. أنا لا أملك إحصائيات ولكني مستعد للمراهنة على أن كتب المستقبل لا تصل إلى 1٪ من كتب الماضي: الذكريات، والمذكرات، والسير الذاتية، وكتب التاريخ، وكتب البكاء على الإطلال.. إلى آخر القائمة. والأمر لا يقتصر على الشيوخ أمثالي، سواء جاءت شيخوختهم مبكرة أو متأخرة. حتى الأطفال الصغار يتحدثون عما كان «يوم كانوا صغاراً!». هذا شيء يدعو إلى الحيرة: أن يتحدّث طفل الثامنة عن «ذكرياته» ويرفض الحديث عن السنة الدراسية المقبلة. وماذا عن الأمم يا عزيزتي؟ الأمم! اقرأي ما ينتجه مفكرو الأمة العربية وأدباؤها وعلماؤها وستجدين النسبة نفسها 99٪ عن الماضي و1٪ عن المستقبل. آه! كيف تستطيع أمّةٌ أن تصنع مستقبلها وهي في قبضة ماضيها يعصرها عصراً

حتى يستنفد كل ذرة من طاقاتها؟ كيف نستطيع أن نقضي على التخلف إذا كنا نعتقد أن التخلف مفخرة لأننا اخترعنا الصِّفر ذات يوم (هذا إذا كنا حقاً اخترعناه!).
استعرضي الكتب العربية الجديدة وعندما تجدين في سنة من السنين، أن عدد الكتب التي تتحدث عن المستقبل، من المحيط إلى الخليج، تجاوز خمسين كتاباً تفاءلي بالخير واعلمي أننا بدأنا نتحرر من شبكة الماضي العنكبوتية، حقيقةً لا مجازاً. ومع ذلك فأنا أعلن أن انتظارك سيطول.. ويطول!!

« 8 »



عزيزتي،

كنت أتحدث البارحة مع جيفري بوزز. لا بد أنك سمعتِ به. نعم! نعم! النجم السينمائي الذي كان ذات يوم، «خفقة قلوب» النساء في كل مكان. ثم انتهى به المطاف في هذا المكان. بدأتُ بسؤاله عن النجمات اللاتي «عرفهنّ جيداً» وأنتِ تعرفين ما أقصد. وهو عرف ما أقصد. سَرَّه السؤال فابتسم وقال: «أوه! جاك! النجمات! لا أعرف العدد ولكنهنّ كثيرات، كثيرات جداً». قلت: «آلاف؟! مئات؟!» فكر قليلاً ثم قال: «الحق أني لا أتذكر. عشرات؟ أعتقد أن عشرات أقرب إلى الرقم الفعلي. لا أعرف العدد. ولكن دعني أضع المسألة بهذا الشكل؛ عرفت أكثر النجمات اللاتي مثَّلن

معي». صفّرت إعجاباً ودهشة. وشرد هو قليلاً ثم قال: «هل تريد أن أقول لك الآن شيئاً عجيباً لا يصدق؟». قلت: «نعم! رجاءً!». قال: «هل رأيت نجمةً سينمائية في الصباح، قبل أن تنظف أسنانها، وتستحم وتضع المكياج؟». فكرت قليلاً (لا أدري لم فكرت قليلاً. ربما لأعطيه الانطباع أني، بدوري، أملك تجارب عديدة مع نجمات شهيرات!). وقلت: «لا! لا أستطيع أن أقول أني رأيت منظراً كهذا، ولكن يا جف (رفع الكلفة المعتاد!) ليس من المستغرب ألا تبدو أي امرأة مثيرة في الصباح وخاصة قبل أن تنظف..». قاطعني: «صحيح يا جاك! ولكن تأمّل هذه المسألة. الفرق بين المرأة العادية في المساء والمرأة العادية في الصباح قد يكون بنسبة 50٪ أو حتى 100٪. على الأقل تستطيع تمييز الملامح حتى بعد اختفاء المكياج. أما مع النجمات فالأمر يختلف تماماً. ما تراه على الشاشة في معظمه مكياج، وعندما يذهب المكياج لا تكاد تعرف الوجه». قلت: «هذه مبالغة يا جف». قال: «لا توجد مبالغة. صدقني! عندما ترى الوجه في الصباح تندم على الوقت الذي أضعته في مطاردة صاحبته، أو خلال مطاردتها هي لك». قلت:

«غريب! رجال العالم، الشيب قبل الشباب، يتمنون لو أتيحت لهم ليلة واحدة مع نجمة إغراء وأنت تقول لي الآن..». قاطعني: «نجمات الإغراء؟!هن أسوأ الجميع. الإغراء خداع في خداع. معظم ملكات الإغراء سمكات باردة في الفراش». قلت مذهولاً: «سمكات باردة؟!». قال: «بل مثلجة! أستطيع أن أعددهن واحدة واحدة. لا! لم تعد الذاكرة تسمح بهذا كما تعرف وأعرف. ولكن صدِّقني أنه باستثناء نجمة إغراء واحدة، واحدة فقط، كانت التجارب معهن مملّة، وأحياناً مقززة». قلت: «مقززة؟! ليت المراهقين في كل مكان يعرفون هذه الحقيقة؟»: قال: «لو عرفوها لما تغيّر شيء». قلت: «كيف؟». قال: «مع النجمة، أي نجمة، أنت لا تنام مع امرأة بل مع اسم». قلت: «على ذكر الاسم، ما اسم النجمة التي قلت قبل قليل أنها لم تكن مملّة أو مقززة؟». فكّر قليلاً ثم قال: «الأسماء! الأسماء، دائماً، مشكلة يا جاك. كانت الأسماء مشكلة قبل ألزهايمر فما بالك الآن؟ اسمها؟ اسمها؟ قد أتذكره في ما بعد. ماتت الفتاة المسكينة في أوج شبابها وشهرتها في حادث سيارة». قلت: «جف! هل تسمح لي أن أوجه

سؤالاً صريحاً إليك؟». قال: «تفضّل! تسرني الإجابة على أي سؤال قبل أن أفقد القدرة على الإجابة على أي سؤال. بالمناسبة، كيف ذاكرتك هذه الأيام؟». قلت: «لا بأس بها. ما زلت أتذكر أفلامك القديمة. الحقيقة أني كنت أشتهي الممثلة التي ظهرت معك في فلم «الشلال». كانت جميلة جداً». ضحك جيف وقال: «هذا مشجّع! «الشلال»؟! أتذكر الفلم ولكني، للأسف، لا أتذكر اسم الممثلة». قلت: «اسمها روندا فلاندرز» قال: «برافو! نعم! تذكرّت الآن». قلت: «بدت لي من مقعد المتفرج جميلة جداً ولكني لم أرها في الصباح قبل أن تنظف أسنانها». ضحك جيف، وقال: «ولا أنا!» قلت: «عجيب!». قال: «ما وجه العجب؟ هل تظن أني حصلت على كل امرأة اشتهيتها؟». قلت: «هذا ما تصورته. على الأقل بالنسبة للممثلات». قال: «عرفت الكثيرات كما سبق أن أخبرتك، ولكن بعضهن رفضن التعاون، ولم تكن لديَّ أدنى رغبة في بعضهن». قلت: «وروندا؟». ابتسم وقال: «أظن أنها رفضت التعاون». فجأة نظر جيف إلى عينيَّ وقال: «جاك! بدأت أقلق عليك. ألم تقل لي قبل قليل أنك ستسألني سؤالاً

صريحاً؟ هل نسيت؟». قلت: «انفتحت سيرة روندا وضاع السؤال. سأعود إليه الآن. قلت: إن الذين يريدون النوم مع النجمات يريدون النوم مع اسم. هل ينطبق هذا على النجوم الرجال؟ هل ينطبق عليك أنت؟ هل تريد المعجبات النوم مع اسمك فقط؟ وقبل أن تجيب هناك سؤال ثان لا أود أن أنساه: كم عدد النساء العاديّات، أعني المعجبات، من غير النجمات، اللاتي عرفتهن معرفة حميمة؟». ضحك جيف وقال: «هل كنت صحفياً يا جاك؟». قلت: «كنت سبع صنايع والبخت ضايع». قال: «حسناً! أنت ترهق ذاكرتي ومع ذلك أستطيع أن أقول أن الرقم ليس كبيراً. يجب أن تعرف، يا جاك، أن النجم عليه أن يتعامل بحذر شديد مع المعجبات. هناك الملايين، ربما عشرات الملايين، منهن. لو أسلمت نفسك لهن لمزقنك تمزيقاً في لحظات. ثم إنني كنت أرى أن استسلامي لمعجبة فيه شيء من الذل يحوّل الصياد إلى فريسة». قلت: «ماذا تقصد؟» قال: «كلنا، نحن الرجال، في علاقتنا مع النساء أشبه ما نكون بصيادين يبحثون عن صيد. وبقدر ما يكون الصيد صعباً بقدر ما تزيد فرحة الصياد. الذي يصيد فيلاً

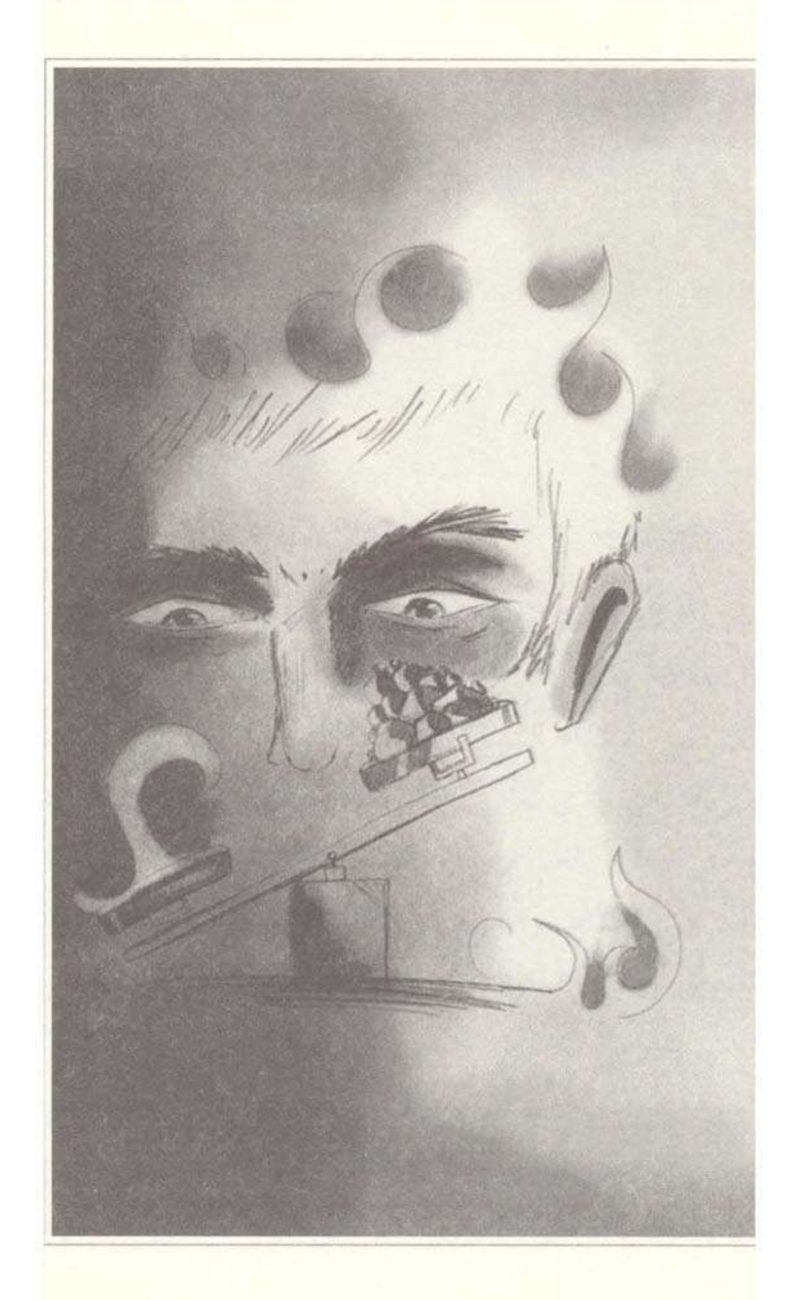
ليس كالذي يصيد أرنباً. أليس هذا صحيحاً؟». قلت: «هذا صحيح!». قال: «إذن، فكّر قليلاً في الموضوع». قلت: «آه! فهمت! الأفيال هي النجمات اللواتي تريد أنت اصطيادهن. والأرانب هنّ المعجبات اللاتي لا يثرن شهية الصياد». قال: «هذا صحيح إلى حد ما. ولكن الصحيح أن الأرانب، في هذه الحالة، هي التي تطاردك. إذا استسلمت لمعجبة أصبحت فريسة لها». ضحكت وقلت: «فريسة الأرنب؟!». قال: «ولهذا فعدد المعجبات اللاتي عرفتهن ليس كبيراً». قلت: «حسناً! وماذا عن السؤال الأول؟» قال: «أيّ سؤال؟!». قلت: «ظاهرة النجم. هل أنت في نظر النساء مجرد اسم وليس إنساناً حقيقياً؟». قال بلا تردد: «بكل تأكيد! بكل تأكيد! هل تعتقد أن واحدة من المعجبات، أو حتى النجمات، أرادت النوم معي لأنها أعجبت بثقافتي أو ذكائي أو خفة دمي؟!». قلت: «بصراحة، لا أدري». قال: «ولا واحدة!. الاسم! الاسم! هذا ما كُنّ يُرِدْنه وإذا حصلن عليه تحقق هدفهنّ بصرف النظر عما حدث فعلاً في الفراش. نمت مع فلان! اصطدت الفريسة! انتهى الموضوع!». قلت: «هل أفهم من كلامك أنك لم

تستمتع بالجنس على الإطلاق؟». قال، بعد تفكير قصير: «لا! لا! المرات التي استمتعت فيها حقاً بالجنس كانت قبل أن اشتهر. أو كانت مع نساء لم يعرفن من أنا بعد أن اشتهرت، وقبل أن تسأل عن العدد أقول لم تكن هناك حالات كثيرة، أعني كثيرة جداً». قلت: «وماذا عن الحب؟ كم مرة أحببت؟». شردت عيناه في فضاء الغرفة، وبعد دقائق من الصمت أجاب: «كانت هناك أربع قصص حب في حياتي. واحدة أثناء الدراسة الثانوية. الحب الأول. استمرت العلاقة قرابة سنة دراسية وانتهت بزواج الحبيبة. والقصة الثانية حدثت عندما بدأت حياتي في هوليود. كنت مجرد شاب طموح يبحث عن فرصة في مدينة الأضواء وكانت هي تملك العمارة التي كنت استأجر شقة صغيرة فيها. كانت في الأربعين وكنت في العشرين. كان الحب عاصفاً عنيفاً مليئاً بالبروق والرعود والغيرة والشجار. وانتهى بهربي من العمارة ومنها. لا تسألني عن التفاصيل فقد نسيتها. الحقيقة أنني نسيت حتى اسمها! تصوّر! القصة الثالثة معروفة جداً، ومُوثقة في وسائل الأعلام بالتفصيل. زوجتي الممثلة». قلت: «ناتالي نورث؟». قال: «هي بعينها. كان هناك

حب حقيقي قاد إلى الزواج، وكان الزواج في البداية سعيداً جداً.. ثم... ثم.. ثم..». قلت: «دخلت الغيرة بمختلف أنواعها وأشكالها الصورة وقضت على الحب». قال: «كيف عرفت؟! هذا ما حدث بالفعل. والآن، ماذا عنك يا جاك؟ ماذا عن حكاياتك مع النساء؟». قلت: «أنا؟! أنا لست نجماً ولا حتى كومبارس. ومقارنة مغامراتي بمغامراتك مثل مقارنة خربشات طفل بروائع بيكاسو». ضحك جيفري من الأعماق، وقال: «بيكاسو؟! هِهْ؟!». قلت: «بيكاسو!». قال: «حسناً! قل لي على أي حال». قلت: «ولكن حديثك لم ينته. لم تحدثني عن حبك الرابع». بدت علامات الحيرة الشديدة على وجهه وقال: «آه! الحب الرابع؟ أعتقد.. لا.. أجزم.. أكاد أجزم أنني تزوجت الرابعة أيضاً. لا! لا! لا! كانت بائعة تذاكر في سينما متواضعة. لا! ربما كانت مروِّضة أسود في سيرك. في سيرك؟! لا! أظن أنها كانت معلمة في الثانوية. أف! اعذرني، يا جاك. فجأة نسيت كل شيء عنها. كل شيء! هذا يدعو إلى الغيظ». قلت: «لا مبرّر للغيظ. أنا وأنت نعرف السبب». قال: «فلنعد إليك!». قلت: «تزوجت

للمرة الأولى وأنا صبي من بنت عمي وهي بدورها صبية وكان قرار الزواج من والدها ووالدي ولم نشعر بأي لحظة من السعادة». قال جيف: والدها ووالدك؟! ابنة عمك؟ صبية صغيرة! عجيب هذا الزواج». قلت: «ولهذا لم يطل أجله. اللذان زوجانا طلقانا بعد أسابيع. جاءت فترة من الحرية وتعرفت على عدد لا بأس به من النساء. لا يصل إلى العشرات بأي حال من الأحوال. ثم انتهت فترة الحرية بزواجي الثاني.. زواجي.. زواجي من.. زواجي». هنا، يا عزيزتي حدث شيء غريب. فجأةً نسيت كل شيء عن زواجي الثاني وعن زوجتي الثانية. كل شيء!... كل شيء! كان جيفري ينتظر الجواب وأنا أعصر خلايا الذاكرة بلا جدوى. لاحظ ارتباكي وقال: «جاك! هل يزعجك شيء؟ أعتقد أنه عرف السبب ومع ذلك تظاهرت أنه لا توجد مشكلة... قلت: «لا! ولكني أريد أن أُبقي شيئاً للحوار القادم. تحدثني أنت عن زوجتك الرابعة وأحدثك عن زوجتي الثانية». قال: «أوكي! اتفقنا!». لم أنم تلك الليلة. كنت أتململ وأتقلب وأحاول تذكر شيء عن زوجتي الثانية ولكني لم أتذكر شيئاً. أي شيء! أي شيء!!

« 9 »

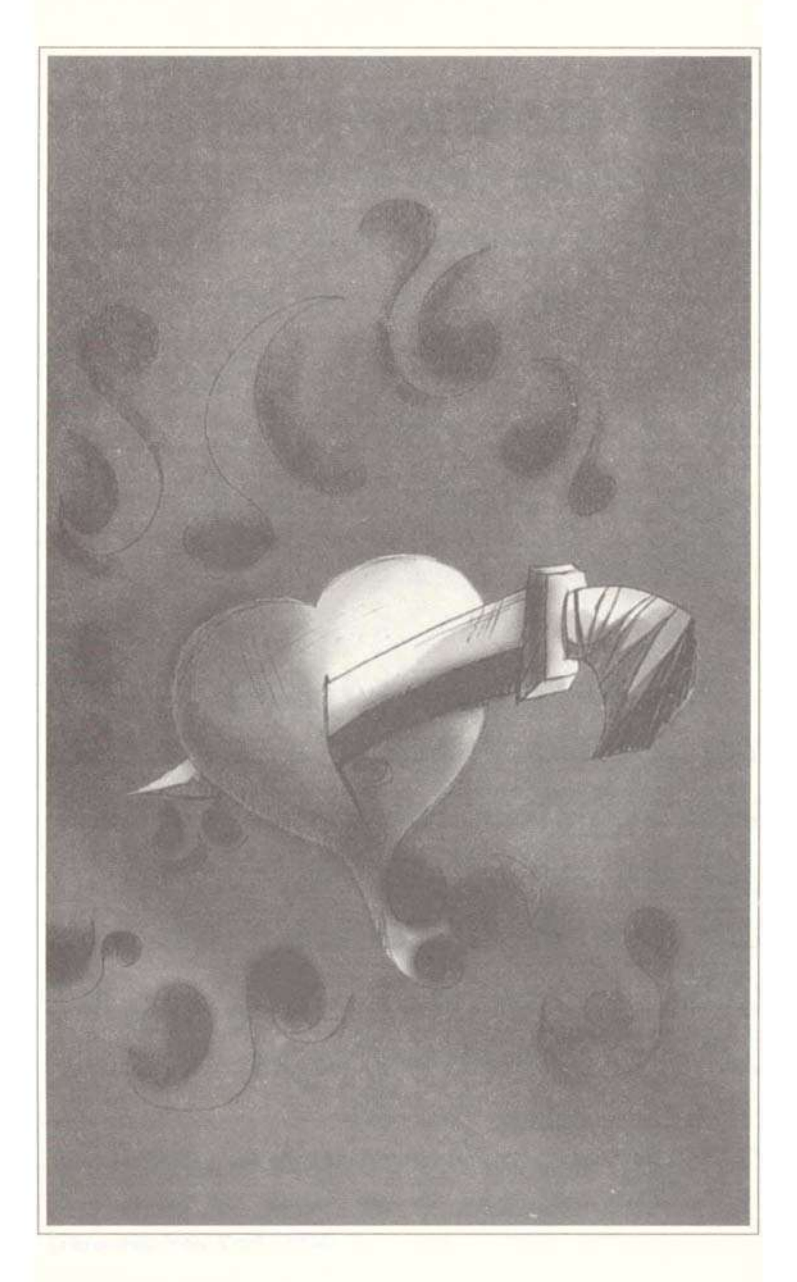


عزيزتي،

أفكار جديدة تهبط عليَّ فجأة. بدا لي أن نسيان الأشياء السيئة لن يكون أمراً سيئاً. الأشياء السيئة! أوّاه! هل يوجد أكثر من الأشياء السيئة؟ أليست الأشياء السيئة في طفولتنا سرّ العذاب الذي نعاني وطأته طيلة حياتنا، طبقاً للعم فرويد وحتى أعداء العم فرويد؟ أليست الأشياء السيئة في حياة المراهق والشاب والشيخ سرّ شقاء كل منهم. وهذه الأشياء تلتصق بخلايا الذاكرة بعناد عجيب وتأبى أن تفارقها. الطفل الذي يتعرض لتحرش جنسي هل يمكن أن ينسى الواقعة؟ ليس من الضروري أن يتحول إلى مريض نفسي ولكن هل يمكن أن ينسى ما حدث؟ إهانات الكبار للصغار هل يمكن أن ينساها الصغار؟ العجيب أن لكلّ مرحلة عمرية أشياؤها

السيئة، تبدأ ولا تنتهي. قصص الحب الفاشل، المصاعب المالية، مشاكل العمل، الأمراض، حكايات الغدر والخيانة، فقد الأحباب والأصحاب. أليس نسيان هذه الأشياء السيئة شيئاً إيجابياً؟ ماذا لو أفقت ذات صباح فوجدت أني لا أتذكر شيئاً واحداً سيئاً مرّ بي. تصوّري! لا أتذكر تعليقات الأسرة الجارحة التي عذبت طفولتي. لا أتذكر المدرس الساديّ الذي كان يتلذذ بإيذائي في المدرسة الابتدائية. لا أتذكر العلاقات الملتبسة في المراهقة. لا أتذكر! لا أتذكر! لا أتذكر! أصحو بذاكرة نظيفة من الشوائب والمنغصات. ألن يجعلني هذا أسعد الناس؟ آه! يا للفكرة الجميلة! يا للفكرة الجميلة الوهمية! تعرفين، يا عزيزتي، كما أعرف أن صديقي ألزهايمر لا يفرّق بين شيء جيّد وشيء سيئ. لا يفرّق بين ذكرى القبلة الحالمة وذكرى الطعنة القاتلة. لا يفرّق بين ما فعله الأعداء وما فعله الأصدقاء. يمحو كل شيء. ولعله يمحو الأشياء الطيبة قبل الأشياء الرديئة. وعندما يذهب كل شيء أي معنى يبقى للسعادة؟ ما هي السعادة؟ أليست السعادة في التحليل النهائي، مجموع التجارب السعيدة؟ بلا ذاكرة لا توجد تجارب.. لا يوجد سوى الفراغ.. فراغ الموت.

« 10 »



عزيزتي،

أرجو المعذرة على تأخري في الكتابة. كنت خلال الأيام الماضية مشغولاً بكتاب أثار في نفسي الكثير من الحزن. هل أخبرتك أن لدينا مكتبة تضم آلاف الكتب، وتضم قسماً خاصاً كبيراً بالكتب التي تتناول ألزهايمر؟ عنوان الكتاب **الموت بسرعة بطيئة**(*). وتحت هذا العنوان تجيء عبارة «مذكرات ابنة وأمها مع الوحش الذي يسمى ألزهايمر». المؤلفة روائية أمريكية، معروفة بعض

(*) Eleanor Cooney, DEATH IN SLOWMOTION A MEMORI of a daughter and her mother, and the beast called alzheimer's, (Peremial, New York, 2004).

الشيء، اسمها ايلينور كوني، وأمها، المبتلاة بالمرض، روائية وكاتبة هي الأخرى. تصف المؤلفة، بتفاصيل قاتلة، مأساتها حين أصيبت أمها بالمرض واضطرت إلى نقلها من بيتها الذي أحبّته وألفته إلى ولاية أخرى لتعيش في المنزل مع الابنة وصديقها. تصف الجحيم اليومي الذي عانته أثناء وجود أمها معها، الجحيم الذي قادها إلى الإدمان والمهدئات وكاد أن يدفع بها إلى الجنون. وتصف تأنيب الضمير الهائل الذي مزقها حين اضطرت إلى إدخال أمها بيتاً بعد بيت من بيوت الرعاية: تدخل الأم بيت الرعاية، وبعد أيام تثور وتزعج من حولها، وتُطرد من المكان، لتعود إلى منزل ابنتها ثم إلى بيت جديد تُطرد منه وتعود إلى ابنتها.. وهكذا دواليك. اسمحي لي أن أنقل لك فقرات من الكتاب تصوّر أجواء المأساة. تروي الابنة الصعوبة التي لاقتها في إقناع أمها بالانتقال من المدينة التي عشقتها والبيت الذي أحبته إلى مدينة جديدة وبيت آخر. تحشد الابنة الدليل بعد الدليل على أن أمها لم تعد قادرة على الاعتناء بنفسها: «لقد خدعك نصابون واستولوا منك على قرابة ثمانية آلاف دولار. لقد عجزت عن معرفة الطريق إلى بيوت

صديقاتك اللاتي تعرفينهن منذ أربعين سنة. وأنت تضطرين إلى حمل خارطة للمدينة تدلك على المواقع التي تريدين الذهاب إليها. وأنا أجدك باكية حزينة كلما حدثتك بالهاتف. هاتفتني مرة وقلت أن لصوصاً مجهولين سرقوا قطتك ثم تبين أنك أغلقت باب القبو على القطة. جميع صديقاتك قلقات عليك. كلّهنّ اتصلن بي وعبَّرن عن هذا القلق»(*). وتصف المؤلفة بعد أن انتقلت الأم لتعيش معها ما يحدث عندما تترك الملحق المخصص لها في الحديقة وتدخل البيت: «تفتح الباب، عشرين، ثلاثين، أربعين مرة في اليوم. كل يوم. تبحث عن حقيبتها، تسأل إذا كان بوسعها تناول العشاء معنا، تُريني قائمة الأشياء التي تود شراءها، وتسأل إذا كانت هناك زجاجة فودكا في المنزل، تخبرنا أنها ذاهبة لتغفو قليلاً، تسأل عن اسم الطبيب الذي رآها آخر مرة، تريني قائمة الأشياء التي تود شراءها. تبحث عن حقيبتها. نسمع أشياء كثيرة تعيدها آلاف المرات»(**). وتصف

(*) ص45.

(**) ص55.

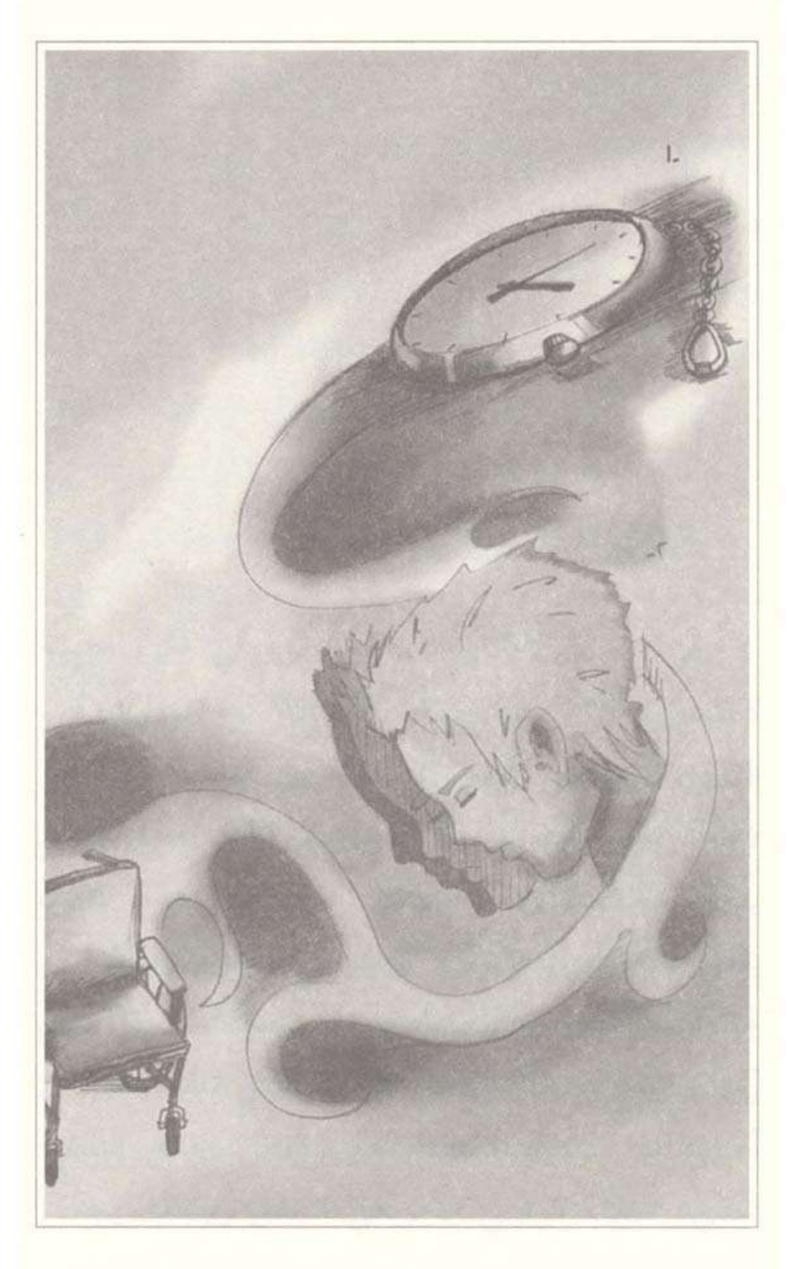
الابنة عذابها وهي تقول لأمها أنها ستأخذها في نزهة ثم تأخذها إلى بيت من بيوت الرعاية وتتركها هناك: «آه! يا الله! تلك النظرة على وجهها حين أدركت أننا ننوي أن نتركها ونذهب. كثير من الذين يرعون المصابين بالمرض يتحدثون عما يشعر به المصابون من بارانويا، وشكوك وما يطلقونه من اتهامات. إلا أن أمي لم تكن، قط، كذلك معي. كانت تثق فيّ، حتى في أشدّ حالاتها حزناً ومرضاً وحيرة... كانت تثق فيّ. من هنا يجيء هذا الألم الذي لا أستطيع ضربه حتى يموت، لا أستطيع دفنه، لا أستطيع حرقه، لا أستطيع أن أغرقه رغم جالونات النبيذ التي أسكبها عليه(*)». وتتحدث المؤلفة عن الأثر الذي تركته هذه الحلقة المفرغة في نفسها: «إذا كنت لا تصدّق أن ألزهايمر يعادل الموت فجرِّبْ أن تعيش معه سنة ونصف السنة. إنه أسوأ من الموت. في الفترة الطويلة التي تسبق الموت يختفي المريض ويحل محله شخص آخر يدعّي أنه هو. وأنت عبر اللقاء اليومي الحميم مع المريض، تصبح نسخة مرعبة شاحبة من

(*) ص126.

نفسك القديمة. أنت، بدورك، تبدأ فقد ذاكرتك. أنت، بدورك تطوّر نوعاً من النسيان ذا طبيعة قاسية. لا يعود بوسعك أن تتذكر الشخص الطبيعي، الشخص الذي عرفته قبل المرض. بطبيعة الحال، يمكنك أن تتذكر على نحو ما، ولكن الذكريات الحقيقية محجوزة خلف زجاج سميك لا تستطيع أن تخترقه لتصل إليها»(*). حسناً! حسناً! يكفي! لا أودّ أن أعذبك بالكتاب كما تعذّبت. لعلك أدركت الآن لماذا هربت منك ومن الطفل والطفلة. لعلك أدركت لماذا أردت أن أجنبكم هذا السّعير اليومي. بالمناسبة، ما زلت عاجزاً عن تذكر أي شيء، أي شيء على الإطلاق، عن زوجتي الثانية. أحياناً أتساءل: هل كانت هناك زوجة ثانية؟!

(*) ص215.

« 11 »



عزيزتي،

في خضم الأفكار المظلمة، تراودني فكرة مضيئة كالشمس. ألا توجد قوة تقهر النسيان؟ قوة تستطيع وقف القاتل المتلصّص ألزهايمر؟ ماذا عن الحب؟ ماذا عن كلامنا الكثير عن الحب؟ الحب هو الذي يجعل العالم يدور. الحب أقوى من الموت. الحب يفعل هذا. الحب يفعل ذاك. آه يا عزيزتي! نقبت في المكتبة وقرأت عن عشرات الأشخاص الذين أصيبوا بالمرض. كان كل منهم يُحِب ويُحبّ. إلا أن كل الحب الذي تلقوه، والذي أعطوه لم يستطع الانتصار على اللص القاتل اللئيم. خذي، مثلاً، الرئيس الأمريكي السابق رونالد ريجان.

كان يحب زوجته نانسي حباً عميقاً من النوع النادر الذي يوشك أن ينقرض. حتى عندما تقدم به المرض ظلّ يعرفها: كانت هي الشخص الوحيد الذي يعرفه. ولكن ماذا حدث في النهاية؟ حدث أن نسيها كما نسي غيرها. فشل الحب أمام ألزهايمر. وماذا عن الإيمان؟ أليس الإيمان أقوى من الحب؟ أليس الإيمان بخالق لا حدود لرحمته ولقدرته مصدر قوة هائلة لا تقارن بها أي قوة أخرى؟ أليس الإيمان هو الذي يدفع الشهداء إلى الشهادة، ويقذف بالملايين في ساحات القتال؟ أليس الإيمان، من نوع أو آخر، هو القوة الرئيسية التي حركت التاريخ، ولا تزال تحركه؟ إيمان روما بعظمتها وقدرها الذي لا يغلب صنع الامبراطورية الرومانية. وإيمان الفرس بأمتهم العريقة صنع الامبراطورية الفارسية. وإيمان العرب بالله صنع الامبراطورية الإسلامية. حتى هذه اللحظة وراء كل إنجاز عظيم إيمان عظيم. هل الامبراطورية الأمريكية التي تسود العالم اليوم سوى انعكاس طبيعي لإيمان الأمريكيين بتفوقهم وتفوق أسلوب حياتهم؟ والاستعمار الغربي بأسره، ألم يكن، بمعنى من المعاني، نتيجة إيمان الرجل الأبيض بدوره

التاريخيّ الفريد؟ ولكن هل يستطيع الإيمان، الإيمان بالخالق، أسمى أنواع الإيمان، الوقوف في وجه النسيان؟ يستطيع بكل تأكيد أن يحاول. وبين يديّ الآن كتاب ألّفه قسيس أمريكي أصيب بالمرض في مرحلة مبكرة نسبياً من عمره(*)، وكان من المنطقي أن يلجأ إلى السلاح الأقوى في عدته لمقاومة المرض، أنْ يهرب إلى الإيمان، أن يلجأ إلى أحضان المسيح. يروي الكتاب، على نحو مؤثّر، المعركة الضارية بين الإيمان والنسيان. في البداية انتصر الإيمان، أو هذا ما تصوّره القسيس المؤمن وقتها: «دنا المسيح ونزل وأدخلني في مستوى جديد من العلاقة به، مستوى المعاناة. في غمرة حبّه الفيّاض، استمع المسيح إلى صلواتي المرتبكة، وأفكاري المضطربة، وتفهم عذابي وحاجاتي الملحة»(**) ثم ماذا حدث؟ مع تقدم المرض بدأ إيمان القسيس يتزعزع: «لقد اعترفت بخطاياي وآمنت بقدرة المسيح على خلاصنا، إلا أنني

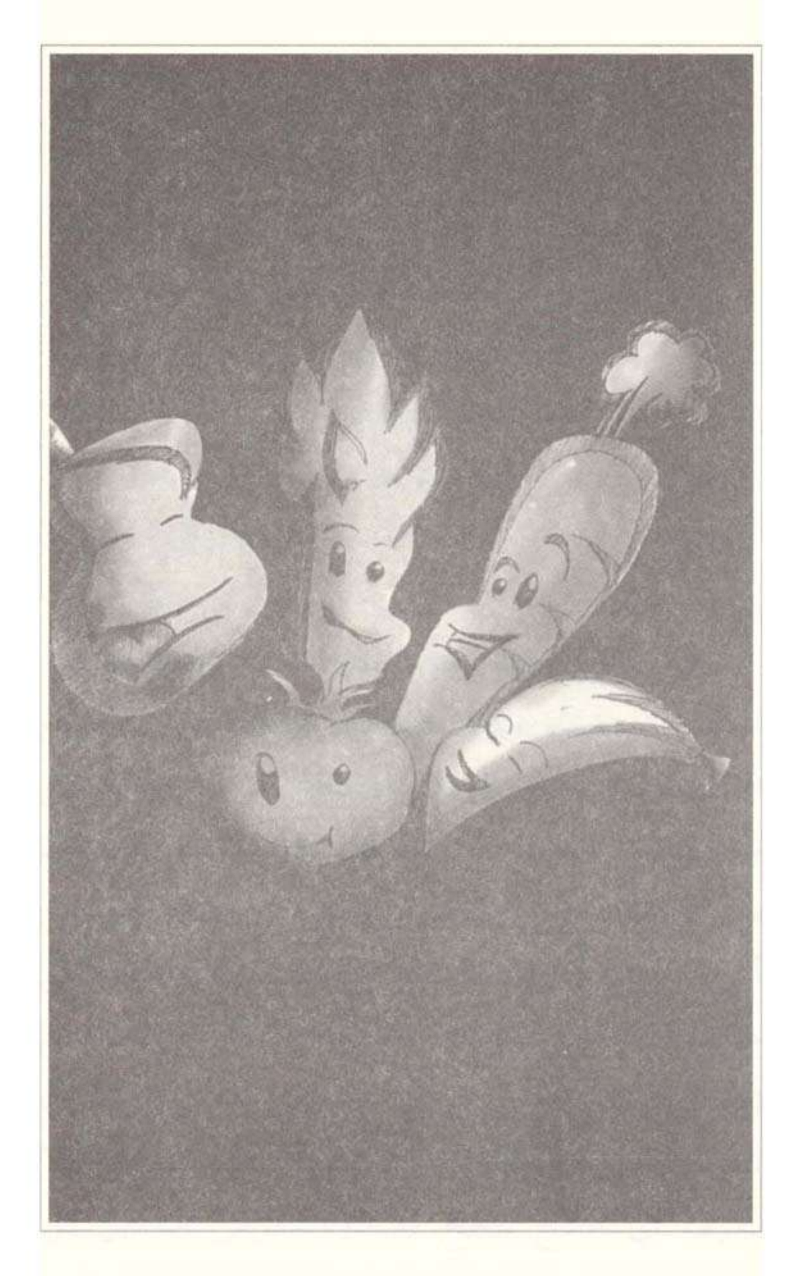
(*) Robert Danis. MY JOURNEY INTO ALZHEIMER'S DISEASE, Carol Stream, ellinois. tynaale horse pablishers 2nc 1989).

(**) ص58.

في ظلام الليل والوقت لا أشعر بوجود الأب. الرابطة تحطمت كهاتف بلا أسلاك لا أسمع منه شيئاً. . . أشعر أني طفل يتيم ضائع ومهجور لن يعرف طريقه أبداً»[***]. يا الله، يا عزيزتي! حتى الإيمان! حتى الإيمان!

(***) ص59.

« 12 »



عزيزتي،

قبل يومين دُعينا نحن معشر الضيوف الجدد، إلى اجتماع حضره مدير المكان وثلاثة من الأطباء الاستشاريين. كان الهدف إعطاءنا فكرة واضحة عن مستقبلنا مع المرض قبل أن نفقد القدرة على استيعاب مفهوم معقَّدٍ مثل المستقبل. استمر الاجتماع أكثر من أربع ساعات. بعد كلمات الترحيب والمجاملة التي عكست أحدث نظريات العلاقات العامة والعلاقات الإنسانية تكلم المدير طويلاً. أهم ما جاء في كلامه أن الطب، حتى هذه اللحظة، لا يعرف سبب المرض ولا يعرف أي علاج ناجح له. واستعرض المدير كل

النظريات التي تتردد هنا وهناك عن إمكانية العلاج بزرع جينات في الدماغ تؤثر على مراكز الإحساس وتوقف تقدم المرض، وقال إنها مجرد نظريات وسوف تمر فترة طويلة قبل أن تثبت صحتها. قال أشياء كثيرة لم أفهم معظمها ولكني فهمت أن علينا أن نتحرر من أي أفكار توسوس لنا بأن هناك أي احتمال، مهما كان بعيداً، للشفاء. كان المدير يتحدث وكانت العبارة الشهيرة المكتوبة على باب الجحيم في ملحمة دانتي الشهيرة تتراقص أمام عيني: «يا من تدخلون هذا المكان اتركوا وراءكم أي أمل في الخروج». بعد هذه المقدمة الممتعة قال المدير إن المرض يتطور، عادة، على نحو يمكن تقسيمه إلى ثلاث مراحل. وترك لكل زميل من زملائه أن يتحدث بالتفصيل عن كل مرحلة. لا أظنك، يا عزيزتي، تريدين أن تستمتعي كما استمتعنا بهذه الرحلة المثيرة عبر المراحل الثلاث، ولكن لا يضرّك أن تعرفي باختصار شديد ومن دون أي مبالغة بيانية، ما يحدث في كل مرحلة. في بداية المرحلة الأولى يبدأ المريض نسيان مواعيده (هاه! هل يذكرك هذا برجل تعرفينه؟). ولا يتنبّه إلى مرور الوقت، ولا يتذكر أحداث الماضي القريب

(الزواج الثاني؟!) وفي نهاية المرحلة ينزع إلى العزلة والانطواء ويتفوّه بجمل لا تحمل معنى محدداً وينسى الكثير من الكلمات التي كان يعرفها. وتبدأ المرحلة الثانية بعجز المريض عن القيام بأمور يدوية مثل شبك الأزارير كما يجد صعوبة في فهم الكلمات، ويُظهر (وهذا شيء غريب جداً) رغباته الجنسية على الملأ وبلا خجل، وتنتهي هذه المرحلة والمريض في حاجة إلى من يساعده في الحركة، ويعاني من نوبات من الغضب والإحباط. أما المرحلة الثالثة فتبدأ بعجزه عن القيام بما يقوم به الإنسان الطبيعي في دورة المياه (وهذا تعبير مهذب عما يحدث!) وتنتهي بأن يصبح كومة بشريةً لا تستطيع القيام بشيء (أي شيء!) من دون مساعدة الآخرين. أكد المدير لنا أن المكان يحرص على إبقاء المرضى من كل مرحلة في مبنى مختلف. سألته: «وهل يعرف مريض المرحلة الثانية الفرق بين مبنى ومبنى؟». ابتسم ولم يجب، وانتقل إلى موضوع آخر. قال إني وزملائي في المرحلة الأولى ولا يدري أحد من الأطباء متى يحين موعد المرحلة الثانية والمبنى الجديد. آه! يا عزيزتي! آه! لو تعرفين قسوة الخواطر التي مزقتني، ولا تزال تمزقني بعد

الاجتماع. يمكن أن يتقبّل الإنسان شيئاً ما ويعيش في انتظاره ولكن أن يوضع الشيء أمامك على هذا النحو بلا رتوش أو أقنعة أو محسِّنات لفظية فأمر فظيع، أمر مخيف. تصورّي أن أعجز عن وضع حذائي في قدمي من دون مساعدة الآخرين! تصوّري أن أعجز عن لبس قميصي دون تدخل خارجي! أتعرفين ما يحدث عندها؟ يتحول الإنسان إلى نبات، أو إلى «خضار» كما يقول التعبير الإنجليزي الفظّ. يصبح الإنسان خضاراً بشرياً شكله شكل إنسان إلا أن عقليته عقلية حبة طماطم أو كوسه أو بامية. أهناك شيء أفجع من هذا؟ أليس الموت أرحم ألف مرة؟ كان طه حسين يقول أنه بسبب عماه «مُستطيعٌ بغيره». كان يقصد أنه يحتاج إلى من يقرأ ويكتب له ويساعده في المشي، ولكن هنا يتوقف تدخل الآخرين. كان عقل طه حسين الوقاد مستغنياً عن الغير. كان عقلاً جباراً تستضيء به عقول المبصرين. ولكن نحن؟! ولكن أنا؟! ماذا يبقى لدينا إذا فقدنا القدرة على الحركة وارتداء ثيابنا والكلام؟ أسألك بالله ماذا يبقى لنا؟ ماذا يبقى للخضروات البشرية؟ وهذا كله قبل الوصول إلى المرحلة الثالثة التي أسميها مرحلة الكوابيس. لا

تستطيع التحكم في وظائف جسمك الطبيعية. تعود طفلاً رضيعاً من جديد تحتاج إلى حفائظ من الأمام وحفائظ من الخلف. أيُّ فرق يبقى بين الحيوان الذي يفرغ أمعاءه حين تشاء أمعاؤه والإنسان الذي يفرغ أمعاءه حين تشاء أمعاؤه؟ هل هنالك فرق؟ نعم! نعم! القطة تدفن فضلاتها، وحيوانات أخرى تفعل ذلك أما الخضروات البشرية!! نرمين! نرمين! هل تتصورين هذا الكابوس؟ هل تتصورين أن أتكلم، وأحاول وأحاول ولا يفهمني أحد؟ وهل تتصورين أن يكلمني الناس فلا أفهم شيئاً. تعرفين، الآن، لماذا تسارع العائلة، مهما بلغ حبها للمريض، إلى أقرب مصحة تتركه فيها، وتركض عائدة إلى عالمها الطبيعي. عالم البشر الذين يستطيعون تغيير أحذيتهم ولبس قمصانهم وحلاقة ذقونهم والذهاب إلى الحمام بأنفسهم! البشر الذين يعرفوننا ونعرفهم، ويحبوننا ونحبهم، ويتذكرون ماذا أكلوا في الإفطار كما نتذكر. ماذا يفعل المصاب بألزهايمر بين هؤلاء البشر الطبيعيين؟ هل لاحظتِ، يا عزيزتي، أننا نشعر بالحرج في وجود من يعاني إعاقة عقلية أو بدنية لا نعاني منها؟ هل لاحظتِ كيف تحمرُّ وجوهنا إذا اضطررنا إلى رفع أصواتنا ليسمعنا

المعوقون سمعياً؟ هل لاحظت مدى ارتباكنا إذا حاولنا التفاهم بحركات وجوهنا وأيدينا وإشاراتنا الغريبة مع الصمّ؟ هل لاحظت كيف نشعر بضيق داخلي إذا نظر إلينا الأعمى ونحن نحسّ أنه لا يرانا؟ وماذا عن شعورنا أمام إنسان فقد ساقه؟ هل لاحظت كيف نصبح محرجين كأننا كنا المسؤولين عن بَتْرِ ساقه؟ بعبارة أخرى، يا عزيزتي، هل لاحظت أن البشر الطبيعيين لا يعودون طبيعيين عند التعامل مع إنسان يعتبرونه غير طبيعي؟! هل جربت أن تتحدثي مع شخص مختل عقلياً؟ أراهنك أنك سوف تجدين سبباً للهرب بعد دقيقتين أو ثلاث! لا! لا تنكري ولا تخجلي! هذه صفات بشرية تنتظم الناس أجمعين. هذه هي الطبيعة البشرية القاسية. آه! أعرف ماذا ستقولين. ستقولين أن الأمر يختلف حين نتعامل مع أشخاص نحبهم ويحبوننا، مع زوجاتنا أو أولادنا أو أخواتنا. بإمكانك أن تؤمني بذلك، وبإمكانك أن تكوني أكثر نبلاً وأرق إحساساً من بقية البشر. لن أجادل. أقول، ببساطة، أن المشكلة التي لا يمكن أن تهربي منها: هي أن الإنسان الذي تحبينه تغيّر بشكل جوهري جذري حتى لم يبق فيه شيء من الأشياء التي تحبينها.

التي أحبت إنساناً لظرفه ستجد أن ظرفه تبخّر مع تبخّر قدرته على الحديث. التي أحبت إنساناً ما لوسامته ستجد أن وسامته أصبحت وسامة تمثال. عندما أعجز عن الكلام والفهم والحركة هل يبقى فيّ شيء صالح للحب؟ لا! يمكن أن تبقى الشفقة، ولكن الشفقة عاطفة رقيقة يصعب أن تدوم إذا تعرضت لهجوم يومي مدمّر. أنا، يا حبيبتي، أشفق على الأعمى ولكن شفقتي سوف تتطاير لو طلب مني أن أعنى به عناية يومية. قد أتمكن من الصمود شهراً أو شهرين أو حتى سنة، أما بعد ذلك فلن يبقى سوى النقمة المختفية تحت قناع الشفقة. هذه، يا عزيزتي، حقائق عرفتها وجرّبتها بنفسي. لم أدرسها في كتاب ولم أسمعها في محاضرة. هذا ما يجعل الأمل، كل الأمل، معقوداً على «المهنيين المحترفين» الممرضين والممرضات وأمثالهم، أولئك المدربين تدريباً خاصاً يجعلهم قادرين على العناية بالخضروات البشرية. والله وحده يعلم ما يدور في نفسيات هؤلاء المحترفين. أحسبك قرأتِ، كما قرأتُ، عن الفضائح التي تدور في مراكز الرعاية العقلية. سمعتِ كما سمعتُ عن الفتيات المتخلفات عقلياً اللواتي يغتصبهن «المهنيون المحترفون»

بانتظام. سمعتِ، كما سمعتُ، عن الضرب المبرِّح الذي لا يكاد يسلم منه مصاب بمرض عقلي في أي مكان. حتى هنا في أمريكا! ذات يوم بعيد رأيت بنفسي آثار الضرب الواضحة على وجوه عدد من المرضى، وكنت أزور نزيلاً في مصحّةٍ نفسيّة. الحق أقول لك يا نرمين: الكرامة البشرية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالعقل البشري. إذا ذهب العقل ذهبت معه الكرامة. هذه الحقيقة يُعبِّر عنها، بدقةٍ متناهية، المثل الشعبي الذي يقول: «إذا أخذ ما وهب. سقط ما وجب» وأول الساقطين الكرامة البشرية. صدقيني! لا كرامة لحيوانات ولا لخضروات ولا لخضروات بشرية. صدقيني إذا قلت أني أعتقد أن الموت أفضل ألف مرة من عيش الخضروات البشرية.

مخرج

السيدة نرمين العريان،

يؤسفني أن أبلغك بوفاة صديقي العزيز، زوجك السيد يعقوب العريان، على أثر نوبة قلبية حادة ومفاجئة. وهذه النوبة لم تكن ذات علاقة بالمشكلة التي كان يعاني منها.

وحيث إن السيد العريان طلب مني إرسال كل أوراقه إليك، فستجدين طيه هذه الأوراق.

أقدم خالص التعازي لك وللعائلة.

الدكتور جيمس
ماكدونالد
قسم ألزهايمر
جامعة جورج تاون



يقف يعقوب العريان أمام بائعة العطور ليشتري زجاجة من عطر زوجتـه المفضل "إكسنتركس". تسألـه البائعـة ماذا يريد ويحاول عبثاً تذكر الإسم. تحاول البائعة مساعدته على التذكر إلا أنه يعجز تماماً عن تذكر إسم العطر، عطر زوجته المفضل. بعد دقائق احمرّ فيها وجهه، وبدت عليه كل علامات الاضطراب، غـادر المتجر وهو يعد البائعـة، التي تبتسم بعطف، بأن يعود إليها ومعه الإسم مكتوباً.

وفي رسالة إلى زوجته من المستشفى الذي يعالج فيه من ألزهايمر يقول يعقوب العريان: أن هذا مرض أرستقراطي جداً، وأن عـدداً من "صفوة الصفوة" في الغـرب قد أصيبـوا بـه. وسأكتفي بذكر بعضهـم: باري جولدواتر السياسـي الأمريكي المعروف، وريتا هيوارث النجمة العالميـة، وشارلتون هيستون ممثل الملاحـم السينمائية الكبـرى، وجوليانا ملكـة هولندا، وأشهرهم جميعاً الرئيس رونالد ريجان. وهذا الأخير هو الذي قال: "هذا مرض جميل! تقابل الأشخاص أنفسهم وتظن أنك ترى وجوهاً جديدة كل يوم".




ISBN 2-84409-592-5
9 782844 095923